التاريخ الأفريقى الحديث

دكتور

سعد بدير الحلوانى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعات الأزهر
والملك سعود والملك خالد

الطبعة الأولى ١٩٩٩م

https://albordj.blogspot.com
https://albordj.blogspot.com

التاريخ الأفريقى الحديث

دكتور
سعد بدير الحلوانى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعات الأزهر
والملك سعود والملك خالد

https://albordj.blogspot.com

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
١٦٠١١ / ٩٩

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

فهـــرس المحتويـــات

الإهداء ٥
المقدمة ٧
التمهيد ٩
الفصل الأول : العلاقات العربية الأفريقية ١٧
العلاقات العربية الأفريقية ١٩
الممالك والسلطنات الأفريقية ٢٨
الفصل الثاني : الاتصالات الأوربية الأفريقية ٣٥
الاتصالات الأوربية بالحبشة فى القرن الخامس عشر ٤١
الاتصالات الفرنسية مع الحبشة ٥١
الاتصالات الانجليزية الحبشية ٥٤
الفصل الثالث : الكشوف الجغرافية ٦٣
نتائج حركة الكشوف الجغرافية ٦٨
البرتغاليون فى غرب أفريقيا ٦٩
جنوب أفريقيا ٧٦
الصدام بين البوير والإنجليز ٧٩
الفصل الرابع : الشمال الأفريقي (المغرب الأقصى) ٨٥
ليبيا ٨٧
عصر الأسرة القره مانلية ٨٩
يوسف باشا القره مانلى ٩١
الحكم العثماني الثانى لليبيا (١٩٣٨ ـ ١٩١١)م ٩٦
السنوسية ودورها فى ليبيا ٩٩
الأطماع الإيطالية واحتلال ليبيا ١٠٢
أحوال ليبيا قبل الاحتلال الإيطالى ١٠٣
ليبيا فى الحرب العالمية الأولى ١٠٩
قيام جمهورية طرابلس ١١١
الفصل الخامس : تونس ١١٧
امتداد النفوذ العثمانى إلى تونس ١١٩
حكم الدايات والبايات فى تونس ١٢١
المشير أحمد باى (١٨٣٧ ـ ١٩٥٥)م ١٢٣

الأطماع الاستعمارية واحتلال فرنسا تونس ١٢٤
الحرب العالمية الأولى وآثارها على تونس ١٢٩
الحرب العالمية الثانية وآثارها على تونس ١٣٠
استقلال تونس عن فرنسا سنة ١٩٥٦م ١٣١
الفصل السادس : الجزائر ١٣٥
امتداد النفوذ العثمانى للجزائر ١٣٨
حكم البيكلربيك فى الجزائر ١٤٢
عصر الدايات ١٤٣
الاستعمار الفرنسى للجزائر ١٤٥
الحملة والاحتلال ١٤٨
المقاومة الجزائرية للفرنسيين ١٤٩
هجرة الفرنسيين للجزائر ١٥٢
الجزائر فى الحرب العالمية الأولى ١٥٢
حركات الكفاح الوطنى بعد الحرب العالمية الأولى ١٥٣
الحرب العالمية الثانية وأثرها على الجزائر ١٥٤
الثورة الجزائرية الكبرى سنة ١٩٥٤م ١٥٦
الفصل السابع : المغرب الاقصى ١٦١
تمهيد ١٦٣
الأطماع الإيبرية (أسبانيا والبرتغال) فى المغرب ١٦٥
دور العلويين فى المغرب ١٦٨
السياسة الفرنسية ومقاومة المغربيين لها ١٧٣
الفصل الثامن : السودان ١٧٧
استيلاء محمد على باشا على السودان ١٨١
النظام الإدارى في السودان (عهد محمد على) ١٨٤
تجنيد السودانيين ١٨٥
الجوانب الإيجابية للحكم فى السودان ١٨٨
مجال التعدين ١٨٩
الثورة المهدية فى السودان ١٩٠
محمد أحمد المهدى ١٩٢
استعادة السودان ١٩٧

إهـــــداء

إلى أســـــتاذى الكبـــــير

الأســـــتاذ الدكتـــــور :

السيد محمد حسن الدقن

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الأزهر
عرفانًا وتقديرًا لعلمه وطيبة قلبه

المقدمـــــة

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على هادى البرية أجمعين، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فقد ظللت أعواماً طوالاً أفكر فى إخراج مؤلف يشمل تاريخ أفريقيا، ولكن الظروف حالت دون ذلك فقد سبقت هذا العنوان عناوين أخرى عديدة خرجت إلى النور، وباتت على أرفف كبرى المكتبات العربية فى مصر والسعودية وغيرها، وفى متناول يد طلبة العلم بالجامعات العربية، فاستعنت بالله لإخراج هذا الكتاب إلى النور على الرغم من ضيق الوقت الذى أرغمنى على إدخال بعض من كتاباتى السابقة (تخص أفريقيا) فى هذا المؤلف.

وحرص على وقت أبنائى وإخوانى طلاب الجامعة حتى لايتأخر وصول الكتاب إلى أيديهم من أجل ذلك بادرتُ بإعداده معتذراً عما قد يكون فيه من تقصير أو اختصار غير مخل.

والله من وراء القصد يهدى وينير،

المؤلف

مدينة نصر ـ القاهرة فى

٢٥ / ١٠ / ١٩٩٩م

التمهيـــــد

تمهيد

موقع أفريقية وأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية

تحتل أفريقية مكانة عظيمة فى العصر الحديث بما تمتلكه من مقومات وإمكانات اقتصادية هائلة، ومواقع استراتيجية تحتاجها دول العالم المختلفة من شتى القارات.

وتبلغ مساحتها ١١٢٦٢٠٠ ميل مربع تقريباً أى ما يقارب خمس مساحة العالم، ويبلغ عدد سكانها أكثر من ٣٥٠ مليون نسمة، وتتنوع اقتصاديات أفريقيا ومنتجاتها نظراً لتنوع تضاريسها ومناخها، فالمناطق الواقعة شمال الصحراء الكبرى تعد من الناحيتين الاقتصادية والجغرافية تنتمى إلى مناطق البحر الأبيض المتوسط، أما البلاد والمناطق التى تقع جنوب الصحراء فهى تضم خليطاً من الأجناس والمعالم والموارد كذلك.

فالملاحظ على أفريقية الوسطى أن اقتصادها استوائى، يعتمد على المنتجات الطبيعية من زراعة وتعدين، وحاصلات الغابة، بينما فى الشرق الإفريقى تتنوع الحاصلات وتتوزع بين المناخ الاستوائى والدافئ مثل البن والطباق والقطن وغير ذلك.

٥ أما فى الجنوب الافريقى فيشكل اتحاد جنوب أفريقية الموقع الأكثر تطوراً فى الناحية الاقتصادية فهو يجمع بين التطور فى الموارد الزراعية، وفى الموارد الصناعية على حد سواء حيث قطع شوطاً كبيراً فى مجال الاقتصاد الصناعى.

وتنتج القارة الأفريقية نصيباً وافراً من الانتاج العالمى فى العديد من السلع الهامة إذ تستأثر بنصيب الأسد من إنتاج الماس فى العالم ٩٨ ٪، ومن الذهب ٥٥٪، و٢٢٪ من النحاس، ٧٠٪ من محصول الكاكاو العالمى، ٦٠٪ من إنتاج الزيت (زيت النخيل)، هذا بالاضافة إلى مشاركتها بنصيب وافر فى انتاج المنجنيز والكروم واليورانيم . . . . الخ.

وتستحوذ القارة الإفريقية على العديد من المناطق والمواقع الاستراتيجية التى تعتنى بها وتستفيد أغلب دول العالم، وتسعى الدول الاستعمارية للسيطرة عليها كما حدث فى السابق ويحدث فى التاريخ المعاصر كذلك وهذه المواقع هى :-

١ - رأس الرجاء الصالح (سيمونزتاون البحرية) وهى من القواعد الهامة جداً.

٢ - قناة السويس بمصر.

٣ - قاعدة مراكش الجوية، والدار البيضاء البحرية.

٤ - جبل طارق وطنجة.

٥ - جزيرة مدغشقر.

٦ - أريتريا كمدخل للحبشة، وجيبوتى، ومقديشيو.

٧ - دكار كقاعدة هامة لطرق الموصلات فى غرب أفريقية.

وهناك مناطق ومواقع أخرى هامة تتناثر فى البلاد الافريقية العديدة.

وقد ارتبط تاريخ أفريقيا الحديث بتاريخ الاستعمار الأوربى فيما سُمى بفترة التوسع الأوربى الأول التى واكبت الكشوف الجغرافية وأعقبها

اجتياح الأوربيين لبلدان القارة الإفريقية واستغلالها أبشع استغلال فما هى قصة الاستعمار وبداياته والنتائج التى ترتبت عليه.

تعريف الاستعمار

تضرب ظاهرة الاستعمار فى أعماق التاريخ حتى تصل إلى بداياته، وربما قبل ذلك فيما يسمى بفترات ما قبل التاريخ، وارتبط ذلك بانتقال جماعات من البشر بحثاً عن الكلأ والمرعى فيتخذون أوطاناً أخرى يستقرون بها، وبهذا المعنى يكون الاستعمار هو طلب التعمير (الإعمار)

وفى قول الله تعالى: « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله » معنى تعمير المسجد بتواجد المسلم المستمر فيه يعبد الله ويظل فيه فى حالة ذكر وتواجد مستمر.

أما الاستعمار بالمفهوم الحديث فقد ارتبط فى الأذهان بعملية الاستيلاء على الغير وممتلكاته بالقوة العسكرية وتوجيه تلك البلدان التى استولى عليها المستعمر لصالحه، من هنا يمكن لنا تعريف الاستعمار بأنه: ـ

«تسخير إرادة الشعوب ومصالحها لصالح الشعب المستعمر وللسياسة التى ينتهجها بطريق الاستغلال».

وقد ظهرت حركات الاستعمار قديماً وتعددت حيث يمدنا التاريخ بنماذج يُعد أشهرها نموذج الفينيقين الذين خرجوا من سواحل الشام، واستوطنوا مناطق شاسعة فى الشمال الإفريقى، وجنوب إيطاليا، وعلى سواحل إيبريا الشرقية والجنوبية مع حرصهم على نقل حضارتهم للمناطق

الجديدة التى استوطنوها، وبدأوا فى استغلال إمكاناتها لصالحهم، وهو ما اتفق فيه الاستعمار حديثاً مع الاستعمار القديم.

وهناك فروق بينها نعرضها فيما يلى : -

الفرق بين الاستعمار حديثا وقديما

١ - الاستعمار حديثاً من أعمال الدول الأكثر تقدماً وأخذاً بالأساليب الحديثة، أما الاستعمار قديماً فلم يكن فقط من أعمال الدول المتقدمة إنما كان من أعمال القبائل البدائية كذلك التى تجمعت واستطاعت أن تسيطر على دول أخرى ذات حضارة وتقدم مثلما فعل المغول مع الحضارة الصينية، والحضارة الإسلامية.

٢ - استطاع الاستعمار الحديث الوصول إلى أبعد بقاع دون عوائق أنهار أو محيطات أو جبال لتقدم وسائل المواصلات، ولذلك تكونت الامبراطوريات الحديثة من أقطار متباعدة مبعثرة.

٣ - أصبحت المناطق المستعمرة مجتمعة أكثر تجانساً فى القديم لقربها من بعضها، بينما المناطق المستعمرة حديثاً أقل تجانساً بسبب بعثرتها فى أنحاء المعمورة وبُعد المسافات فيما بينها.

٤ - ظل الاستعمار قديماً عملاً من أعمال الحاكم لإضفاء المجد والهيبة على ملكه أمام غيره من الحكام، بينما فى العصر الحديث أصبحت هناك مطالبات من الشعوب ذاتها باستعمار غيرها إرضاءاً للنعرة القومية وعملاً تزهو به الشعوب أمام الآخرين.

٥ ـ اعتمد الاستعمار القـديم على استخدام وسيلة واحدة للسيطرة وهى القهـر والغلبة العسكرية، بينمـا حديثاً باتت هناك طرق عـديدة منها : عن طريق الشـركات، وعن طريق إغـراق البلدان فى الديون، والغـزو الفكرى، وربط الدول بمعاهدات واتفـاقيات تشل من حركـتها فيـسهل ابتلاعها، وسياسة الحصار، أو بالإيقاع فيما بينها «فرق تسد».

وللاستـعمار أسبـاب ودوافع بعضهـا طبيعى، وآخـر نفسى، وثالث علمى، ورابع عسكرى واستراتيجـى، وخامس لنشر الدين، وسبب قومى وأخيراً السبب والدافع : الاقتصادى :

أسباب ودوافع الاستعمار

أولاً : الطبيعة

وهى العوامل الجغرافية المناخية التى يضطر معها الإنسان للارتحال مع أهله وعشيرته من مناطق ساءت فيها الأحوال المناخية وتغير فيها الطقس أو نضبت الآبار وشـحت المياه، وارتفعت درجة الحرارة إلـى درجات عليا أو انخفضت إلى درجات دنيا تستحيل معها الحياة.

ثانياً : الأسباب النفسية

وغالبـاً ما تكون بسـبب الأزمات والكوارث التى تحل بـأهل قرية أو قبيلة تدفعها للهجرة، والسيطرة على مناطق أخرى أكثر أمناً وموارد.

ثالثاً : الأسباب العلمية

أدت عمليـة الاختراع والاكـتشاف إلـى تقدم مسـتمر طوال فـترات التاريـخ المتعاقـبة فى وسـائل المواصلات من سـفن وعجـلات، وقطارات

وطائرات . . . . الخ، بالاضافة إلى إقامة القناطر والسدود التى سهلت بالتالى عملية الانتقال والسفر جعلت هناك مغامرين يكتشفون الأراضى البعيدة ثم يدعون أهلهم للارتحال إليها والسيطرة الاستعمارية على خيراتها .

رابعاً : الادعاء بنشر الحضارة بين الأمم المتخلفة

فقد وجد دعاة الاستعمار من يساعدهم من الفلاسفة والكتاب الذين أطلقوا دعوات ظاهرية بنشر الحضارة والتقدم فى البقاع المتخلفة واتخذ المستعمرون ذلك ستاراً يحققون من ورائه أهدافهم الاستعمارية .

خامساً : نشر الدين

وهو سبب اتخذ كذلك لتحقيق أهداف استعمارية، ولا سيما عندما حمل المنصرون الأوربيون صليبهم إلى أهالى أفريقية بحجة نشر النصرانية بين الوثنيين أصحاب الأرض الأفريقية، وما لبث الأوربيون أن تخلوا عن صليبهم للأفارقة حيث قايضوهم بالأرض التى استعمروها واستولوا عليها وعلى أصحابها .

سادساً : العامل القومى

وهو دافع استعمارى بدأت الشعوب تطالب به فى العصر الحديث إرضاء للنعرة القومية بعد أن صارت تعتقد أن عزتها تفرض عليها امتلاك المستعمرات تتباهى بها أمام الأمم المتحضرة الأخرى على حد زعمهم .

سابعاً : الأسباب والدوافع الاقتصادية

فقد أدت حركة الثورة الصناعية التى اشتعلت فى العديد من دول أوربا إلى زيادة عدد السكان زيادة كبيرة فاحتاج المستعمرون إلى تصدير فائض السكان، وتصدير المجرمين إلى المستعمرات الجديدة للخلاص من شرورهم ونفقات سجنهم هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى احتاجت عجلات الصناعة إلى مواد خام رخيصة، وعمالة أخرى رخيصة للأعمال التى يأنف منها الوطنيون الأوربيون، ثم أخيراً وليس بآخر تصريف وتسويق المنتجات التى باتت المصانع تنتجها بكثرة حينئذ وجد المستعمرون بغيتهم فى المناطق التى استولوا عليها وبسطوا عليها نفوذهم.

ثامناً : الدوافع العسكرية والاستراتيجية

فقد احتاج المستعمرون إلى مناطق استراتيجية عبارة عن معابر وجسور لتأمين مواصلاتهم البرية والبحرية، وكذلك الجوية للوصول إلى مستعمراتهم، ولذلك كان عليهم احتلال تلك المناطق التى تعد همزة وصل بين بلادهم والبلاد التى استولوا عليها ناهيك عن احتياجهم لمرافئ يستخدمونها فى تموين وامداد وسائل مواصلاتهم بالوقود والمؤن المختلفة. والأمثلة كثيرة على ذلك منها : مضيق جبل طارق، وباب المندب ومضيق الدردنيل والبسفور، والمناطق الأخرى مثل : بناما والفلبين ومالطا وقناة السويس.... الخ.

الفصل الأول
العلاقات العربية الأفريقية

العلاقات العربية الأفريقية

انتفع التجار والبحارة العرب من الرياح الموسمية التى تهب على المناطق المطلة والقريبة من المحيط الهندى فى الاتصال ببعض السواحل الإفريقية ولاسيما الشرقية منها.

فقد كانت هناك صلات قديمة منذ آلاف السنين تربط بين الشاطئين العربى والإفريقى فى مناطق اليمن وحضرموت وعمان بالساحل الشرقى لافريقيا، حيث عبر العرب مضيق باب المندب، واكتشفو البلاد التى تقع إلى الجنوب منه ساعدهم على ذلك معرفتهم وخبرتهم فى كيفية الاستفادة من اتجاهات الشمس والكواكب، والرياح وبعلم الفلك وأسرار الملاحة كذلك، فأخذوا يرتادون البحر والمحيط، فكان العرب بذلك أول من عرفوا واكتشفوا إفريقية الشرقية، واتصلوا بالجماعات التى تقطن هذه البقاع، حيث أقاموا معهم علاقات تجارية وعملوا على تصريف منجاتهم الإفريقية فى أسواق أرحب.

فالمعروف قديماً أن العرب كانوا بحكم موقعهم الجغرافى يشرفون على طريق التجارة القديم الذى يبدأ من الصين والهند، ويسير بمحاذاة بلاد العرب حتى مدخل البحر الأحمر وتستمر التجارة عبورها فيه حتى تتفرع فرعين أحدهما : إلى السويس فالأسكندرية حيث تحملها السفن إلى بلاد أوربا، وثانيهما إلى العقبة شمالاً إلى الشام فالبحر المتوسط فأوربا.

وكان العرب يمثلون الوسيط الذى ربط تجارة إفريقيا بهذا الشريان التجارى العظيم.

ويبدو أن عـرب الجزيرة العربيـة شمالها وجنوبهـا لم يقتصـروا فقط على الوساطة فى نقل المتاجر، بل اعتنوا بإقـامة قواعد لهم تصلح لتموين السفن ومـحطات لتخزين سلعـهم الآتية من داخل القارة إلى سـواحلها. وسرعان ما تحولت هذه المحطات إلى مراكـز للعمران تجمع حولها السكان المحليون من الأفارقـة فازدهرت حينئذ مـدن إسلامية ساحليـة جمعت بين اللونين الأفريقى والعربى.

وبدخول الإسلام والإشـعاع الحضارى الذى أحدثـه أخذ يبسط نوره على مناطق عـديدة حيث امـتد تدريجـياً فى الشـمال والغـرب والشرق، وتوسعت الملاحة العـربية لتشمل المحيط الهندى، وبحـار الصين وغيرها، وظهر على إثر ذلك أدب الرحلات للرحالة والبحارة الذى ضمنوه خبراتهم الملاحية وقصصهم فى تلك البلدان المترامية الأطراف.

وبعد الاضطرابات السياسيـة التى حدثت فى الدولة الإسلامية أوائل العصر الأموى خاصة فى عهد عبد الملك بن مروان (٦٩٥ـ٧١٤) م اضطرت مجمـوعات قبلية من شبـه الجزيرة العربية أن تهاجـر إلى الساحل الشرقى الإفريقى، وبـدأت هذه المجموعـات تختلط بالسكان الأصلـين وتصاهروا معهم الأمر الذى أثمر فى النهاية ماعرف باسم الشعب السواحيلى.

وفى القـرن العاشـر الميلادى تحـركت هجـرات عربيـة أخرى نحـو الساحل الإفريقى، وبدأت تنشى مدناً ومراكز تجارية كان أولها وعلى رأسها مدينة مـقديشيو على ساحل الصـومال (البنادر)، وبعـدها أقيـمت مدينة براوة، وتبعتها مدناً أخرى عديدة مثل: كلفى، ومالندى، وممبسة، ولامو،

وباتة كلهـا مدن مـستـقلة عن بعضـها فى الشـؤون الداخلية مما أتاح لـها الفرصة فى التنافس العمرانى والرواج التجارى فيما بينها.

ومع ذلك فقد حمل العرب معهم إلى تلك المدن الجديدة، (والقديم منها كذلك) دينهم وحضارتهم ظروفهم ومذاهبهم التى انقسموا إليها، وباتت تلك المدن تحمل المذهب الذى يعتنقه حاكمهم المسيطر على شؤون الحكم فى بلادهم.

ليس هذا فحسب بل نقل العرب معهم بعض الزراعات التى وجدت أرضاً خصبة لـها فى شواطئ إفريقيا الشرقية فزرعوا هناك قصب السكر، والسمسم الهندى والبهارات إضافة إلى العديد من الأشجار التى جلبوا بذورها من الهند.

وباتت بلدان الساحل الشرقى لأفريقيا محطات ومراكز لتجارة الرقيق والذهب والعاج والعنبر والصمغ واللبان والبخور وغيرها من المنتجات الافريقية فى مقابل مايستوردونه من المتاجر الشرقية مثل: المنسوجات والأقمشة الحريرية والكشمير فربطوا بذلك إفريقية الشرقية بمصادر الإنتاج والتجارة العالمية.

كيف سلك الإسلام طريقة إلى إفريقية؟

تعددت الطرق التى سلكها المسلمون إلى القارة الإفريقية وانتشر فيها الإسلام حيث كان ذلك مبكراً جداً فى عصر النبى محمد صلى الله عليه وسلم وأهم هذه الطرق هى:-

١ـ طريق البحر الأحمر

عندما عبر المسلمون فى صدر الإسلام البحر الأحمر فى الهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة، فقد عبر جعفر بن أبى طالب ومعه مجموعة من المسلمين فارين بدينهم بعد اضطهاد المشركين لهم، واتخذوا طريقهم عبر بلاد الصومال أو مداخل الحبشة حتى وصلوا إلى الحاكم النجاشى. ولايعقل أن يمر المسلمون ببلاد عديدة فى مرات الذهاب والعودة دون أن يدعون إلى الاسلام أو يعرفوا أبناء البلدان المارين بها به وبتعاليمه.

٢ـ طريق اليمن والخليج العربى إلى الساحل الشرقى لافريقيا

حيث تدفقت هجرات المسلمين عبر خليج عدن لتنزل على الشاطئ المقابل الإفريقى فى المنطقة التى عرفت باسم ساحل الزنج (بر الزنج) حيث أقاموا مدينة مقديشيو، وانتقلت جماعة منهم إلى زنجبار فنشروا فيها الإسلام، وأخرى أسست مدينة كلوة (بتنجانيقا الحالية)، ثم وصلوا إلى كينيا وأوغندا.

ليس هذا فحسب بل وصل المسلمون إلى جنوب أفريقيا (مستعمرة الرأس عن طريق أهل الملايو الذين نقلهم الهولنديون فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين.

٣ـ الطريق الشمالى عبر النوبة ودنقلة

فقد تبع دخول العرب مصر فاتحين أن حاول عقبة بن نافع فتح بلاد

النوبة ولكنه فشل فى ذلك فـأبرم مع أهلها معاهـدة إقتصادية حتـى انتشر الإسلام بين أهالى النوبة تلقائياً وأخذ يمتـد منهاليصل إلى أرض البجاة فى شرق السـودان، واندفعت مـجموعـات من القبـائل العربيـة إلى السـودان خاصـة فى منطقة دارفور، وأخـذ حكام دولة الفنج فى السودان يعـتنقون الإسلام ويدعون أهلهم إليه.

٤- طريق الشمال الإفريقى (المغرب العربى)

فبعد أن أتم العـرب المسلمون فتح مصر امتدت فـتوحاتهم إلى برقة (فى ليبـيا الحـالية)، وأسـسوا مدينة الـقيروان (تونس) سنـة ٥٠هـ حيث تخذها القـائد العربى عقـبة بن نافع قـاعدة نشر منهـا الإسلام فى مناطق مغربية أخرى فانتشـر الإسلام بين البربر ووصل إلى المغرب الأقصى، كما متد بعد ذلك إلى الأندلس وغيرها من بلاد إيطاليا وفرنسا بمساعدة الفقهاء والعلماء الذين حـرص الولاة والخلفاء على إرسالهم إلى بلاد البـربر لنشر الاسلام بينهم، وتعليمهم أمور وتعاليم الدين الحنيف.

مراحل انتشار الإسلام فى افريقيا

انتشر الاسلام فى أفريقيا على مراحل متعاقبة وهى :-

المرحلة الاولى

وهى تبـدأ من صـدر الإسـلام لينتشـر ببطء حـتى يصل الشـمـال الإفريقى، وفى البقاع التى تمتد من سـواحل البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى مناطق السودان المختلفة جنوبى الصـحراء الكبرى، وتنتهى هذه المرحلة حوالى سنة ١٠٥٠م

المرحلة الثانية

وهى تبدأ بعد توقف المد الإسلامى بعض الشئ بسبب الظروف المضطربة التى ألّمت بالعالم الإسلامى فى أواخر القرن العاشر الميلادى كان من بينها: معارك واضطراب المغرب العربى بين ملوكه وحكامه، وثورات البربر، وحروب الروم... الخ.

وفى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى عاد الانتشار مرة ثانية فدخلت فى الإسلام قبائل الصحراء، وظهرت مجموعة من الممالك الإسلامية فى السودان، وقد شملت هذه المرحلة التى استمرت حتى القرن السابع عشر الميلادى غرب أفريقيا والسودان العربى.

المرحلة الثالثة

وهى تمتد من حوالى سنة ١٧٠٠م إلى ١٩٠١م حيث نشط العمل على نشر الاسلام بمساعدة مجموعة من الدعاة فى محاولة منهم للوقوف ضد هجمات البعثات التنصيرية التى زادت من أنشطتها فى أفريقيا تؤازرها الأطماع الاستعمارية للدول الأوربية على وجه الخصوص.

وامتازت هذه المرحلة بنشاط مجموعة من المصلحين الدعاة الإسلاميين الذين خرجوا من بين الأفارقة أنفسهم لصد المستعمرين وأعضاء البعثات التنصيرية على حد سواء، كما كانت دعواتهم كمجددين عملوا على إثراء وانتعاش الثقافة الإسلامية الصحيحة من بينهم :ـ

١ ـ الإمام محمد عبده فى مصر وبرنامجه الإصلاحى لتطهير الإسلام مماتسرب إليه من بدع، وإصلاح التعليم، ومواكبه روح العصر مع

الالتزام بتعاليم الدين الحنيف، وساندته فى ذلك مدرسة الشيخ محمد رشيد رضا وجماعة المنار التى تأثرت بفكر السلفيين الذى نادى به ابن عبد الوهاب فى شبه الجزيرة العربية.

٢ ـ حركة جمعية العلماء فى الجزائر لمحاربة الصوفية ونشر أصول وتعاليم الإسلام كما جاء بها القرآن ونجحت نجاحاً ملحوظاً خاصة فى عهد ابن باديس حتى وصل تأثيرها تونس ومراكش والهند.

٣ ـ السنوسيون الذين تأثروا كثيراً بالدعوة السلفية بعد أن نهل مؤسسهم السنوسى فكره الإسلامى السلفى من دعاتها فى مكة أثناء سيطرتهم عليها فتأثر بهم وحمل فكرهم الإسلامى الصحيح.

٤ ـ عثمان بن فودى (دنفديو) وهو من قبيلة الفولانى، وقد حمل الفكر السلفى من الحجاز، ومضى يحارب البدع فى بلاده، وبين عشيرته حيث جمع ووحد قبيلته، ثم اتجه يحارب قبائل الحوصة، وتمكن من السيطرة على إمارة غوبير.

وتمكن عثمان من إقامة سلطنة واسعة الأرجاء سنة ١٨٠٤م فى شمال نيجيريا وهى سلطنة : سكت استطاعت أن تبسط نفوذها على العديد من البلدان الواقعة بين تنبكت وبحيرة تشاد.

٥ ـ المهدية فى السودان التى قادها محمد أحمد المهدى، وكانت حرباً على الأتراك والانجليز على حد سواء حتى تمكن من طردهم من السودان ككل فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ولم يتمكنوا من استعادته إلا بشق الأنفس بعد أن نشر دعوته بين ربوع ومناطق السودان قاطبة.

٦ ـ أحمد بن محمد (أحمد لوبو) الذى قام بحركته فى منطقة ماسنة وظل ينشر الاسلام ويعمل فى الاصلاح حتى توفى سنة ١٨٤٤ وتبعه أحمد وشيخو، وصار على نهجه.

٧ ـ محمد بن عبد الله حسان الذى جاهد المشركين والأجانب ومعارضيه فى منطقة الصومال كمجاهد وطنى استمر فى نضاله حتى وفاته سنة ١٩٢٠م.

٨ ـ كما قامت حركات صوفية عديدة أخرى نجمل بعضها مثل : القادرية والتيجانية التى اتخذت طابعاً عسكرياً على يد الحاج عمر فى غرب أفريقيا، وأعلن الجهاد سنة ١٨٤٨م حتى جاء الاحتلال الفرنسى الذى أرغمه على وقف نشاطه، وكذلك الإمام الصمدو فى جنوب سنغامبيا الذى جاهد ضد الاحتلال الفرنسى حيث بلغت حركته أوج نشاطها سنة ١٨٨١، ولكن الفرنسيون قضوا على حركته وأسروه سنة ١٨٩٨م، وهناك فى بلاد السنغال قامت حركة إصلاح صوفية على يد مؤسسها أمادو بامبا تتلمذ على يد الشيخ سيديا سنة ١٩٢١م، وأطلق على حركته اسم : المريدية.

ومع كل هذه الحركات والدعوات المناهضة للاستعمار والمستعمرين فقد انتهت أغلب بلدان أفريقية إلى الوقوع فى أسر المستعمر الذى جاء القارة الافريقية بأسلحة حديثة، وإمكانات متقدمة سيطروا بها على القارة، وأخذوا يستنفذون خيراتها ويستأثون بها لأنفسهم.

ليس هذا فحسب بل عمد المستعمرون إلى إطلاق يد البعثات التنصيرية فى البلاد الإفريقية ينشرون النصرانية بين أهلها خاصة فى المناطق الوثنية ويفتحون المدارس حتى أن الحكومات كانت تعهد للمنصرين بمهمة التدريس فى تلك المدارس، أضف إلى ذلك أن مهمة العلاج والخدمات الطبية تركت هى الأخرى فى يد المنصرين فأنشأو المستشفيات والعيادات التى اقتربوا بها من الأهالى وبثوا فيهم الفكر النصرانى.

اللغات فى افريقية

يمكن حصر اللغات الأفريقية فى مجموعات أربع كالتالى

١ ـ مجموعة اللغات السامية : وهى عبارة عن لغات جاءت من بلاد العرب مهاجرة من موطن الساميين القدماء، وهى غير ثابتة بل تعد لغات وقتية من بينها اللغة الحبشية التى تنتمى وتقترب من لغة الجنوب العربى (اليمن القديم)، ولا تقتصر على الحبشة وحدها بل تمتد فى مناطق مصوع وما حولها، والشرق الأفريقى.

٢ ـ مجموعة اللغات الحامية : وهذه تعم غالبية أفريقية، وتمتد لتغطى المنطقة الواقعة بين المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى شرقاً، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى السنغال والنيجر وجنوب ليبيا وبحر العرب والصومال جنوباً، ومن اللغات الحامية : هناك اللغة القبطية التى كانت منتشرة فى وادى النيل، واللغة النوبية، ومنها لغة التبداوى وهى خاصة بالبجة فى السودان، ولغة البربر فى شمال أفريقية، واللغة الكوشيه فى الشرق الأفريقى، وعلى وجه

الخصوص فى الصومال.

٣ ـ مجموعة اللغات السودانية : وهى تصل إلى أكثر من ٤٥٠ لغة.

٤ ـ مجموعة لغات البنتو : وهى تظهر فى كل من نيجيريا والصومال.

وعلى الرغم من وجود كل هذا العدد الضخم من اللغات الأفريقية وتداخلها فيما بينها إلا أن اللغة العربية قد استطاعت أن تدخل بينها جميعاً وتتغلب عليها وتتفوق لتصبح العربية لغة الناس والثقافة، وكثير من الدول تتخذها اللغة الرسمية الأولى.

وليس هذا بغريب فقد تغلبت اللغة العربية (لغة القرآن والإسلام) على الفارسية والإغريقية والقبطية، وأصبحت اللغة السائدة فى معظم بلاد الشرق الأوسط والشمال الأفريقى، والعديد من الجهات الأفريقية الأخرى.

ولذلك فقد قامت فى أفريقيه مجموعة من السلطنات والممالك التى اشتعلت بالحياة الإسلامية، والمظهر الإسلامى، كما أدخلوا نظم الحكم الإسلامية فى بلاطهم وتشبهوا بمن حولهم من الدول الإسلامية فى النظم الإدارية كذلك، ومن هنا يمكننا القول بأن النظم والمظاهر الإسلامية قد التقت واختلطت بالنظم المحلية والظروف البيئية الخاصة بأفريقية وسنعرض فيما يلى لبعض هذه السلطنات والممالك:ـ

الممالك والسلطنات الأفريقية

أولاً: سلطنة ملى

وهى تحمل أسماءاً أخرى حيث يطلق عليها المؤرخون العرب لقب مليل، والفولانيون يطلقون عليهم لقب مالى، بينما يناديهم البربر باسم: مل أو مليت، والبعض يسميهم: الونجارة.

وقد أسس السلطنة شعب زنجي يُدعى الماندنجو اعتنق الإسلام في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى في الفترة التي صاحبت قيام دولة المرابطين وبداية جهادهم في منطقة السودان الغربي.

تجمعت عوامل عديدة لهذه السلطنة أدت إلى ظهورها ونموها واشتداد بأسها عندما انشغلت دول المغرب الإسلامي فيما بينها، وضعفت امبراطورية الموحدين وتفككت أوصالها، فتوفرت لسلطنة ملي عوامل القوة والاتساع على حساب جيرانها بعد تبنيها حركة الجهاد، وتنظيم جيشها وتدريبه تدريباً يناسب الظروف والبيئة المحيطة بهم.

ظهر تطور واتساع هذه السلطنة في عهد ملكها اسندياتا الذى تمكن في سنة ١٢٣٧م أن يتغلب على مملكة صوصو القوية ثم سيطر بعدها على ملك غانة القديم.

وقد اتخذت ملي من مدينة جريبة القديمة عاصمة لهم، ثم تجاوزوها إلى عاصمة جديدة لهم هي: نياني عند ملتقى نهر النيجر بأحد فروعه (سانكران)، واستمرت الفتوحات حتى بلغت أوجها في عهد منسى موسى (١٣٠٧ـ١٣٢٢م) الذى استولى على مناطق عديدة مثل: ولاته، وتنبكت ومنطقة جاو في النيجر الأوسط، حتى بلغت الدولة أقصى اتساعها عندما استولت على بلاد التكرور في الغرب، ودندى في الشرق، وأروان في قلب الصحراء، وفي الجنوب وصل نفوذها حتى فوتا جالون.

وبالاضافة إلى ما كان حكام ملي يجمعونه من مبالغ ضخمة كجزية، كانوا أيضاً يحتكرون مجموعة من السلع مثل الملح، والذهب،

والمعادن وغيرها، وسيطروا بذلك على طريق التجارة المنطلقة من مدن السودان إلى المغرب العربى مما جعل حكام هذه السلطنة يعيشون فى ثراء فاحش الأمر الذى انتهى بهم إلى الترف والبذخ الذى سيؤثر فى النهاية على قوتهم بالسلب وليس بالإيجاب، وبلغوا أيضاً غاية التوسع الذى يؤدى فى النهاية إلى بداية الضعف وإتجاه هرم القوة إلى أسفل بعد صعوده (سنة الله فى خلقه).

ويهمنا أن نشير هنا إلى أن هذه الدولة قد اعتنت بمظاهر إسلامية عديدة منها اتجاه سلاطينها للحج إلى مكة وزيارة مصر فى موكب بديع أظهر مدى ثراء هذه السلطنة وغناها، بالاضافة إلى توسعها متخذة من الجهاد وسيلة للسيطرة على العديد من المناطق المحيطة والمدن الهامة فيها على وجه الخصوص.

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن نشير إلى آن العلاقات التجارية بين تجار السلطنة والمناطق العربية والإفريقية الأخرى قد أزدادت وشهدت مصر إقبالاً من تجار التكارنة، وطلابهم الذين كانوا يعتنون بشد الرحال إلى الأزهر الشريف حتى بات لهم رواق خاص بالأزهر الشريف جمع طلابهم وطلاب المناطق الأفريقية المحيطة. بهم.

مع حرصهم الشديد على شراء الكتب الإسلامية والعربية لينتفع بها طلاب العلم فى بلادهم.

ثانيا: سلطنة سنغى

ظهرت هذه الدولة فى الوقت الذى بدأ فيه الضعف يدب فى أوصال سلطنة ملى، فقد أخذت أعداد كبيرة من البربر تتدفق على منطقة النيجر فى القرن السابع الميلادى وبسطت نفوذها على مجموعة من المزارعين من أهل سنغى الذين كانوا فى ذلك الوقت ينتشرون على ضفة النيجر الأوسط.

أما عن نمو هذه الدولة فقد تعاظم فى ظل أسرة حاكمة من البربر تدعى: "أسرة زار أودبا" اختلطت دماؤهم بدماء أهل البلاد الأصليين، وبدأوا يوسعون علاقاتهم التجارية مع العديد من بلدان المنطقة الإفريقية فى غانة وتونس وبرقة ومصر، وباتت لهم قوافل تجارية تنقل متاجرهم ومتاجر غيرهم إليهم فاتسع وزاد ثراؤهم.

أما عن مرحلة ازدهار هذه الدولة وتفوقها فى المنطقة فقد كان ذلك فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى عندما اعتنق حكامها الإسلام وتسرب سريعاً بين مواطنيها، ويبدو أن المؤثرات الإسلامية قد انتقلت إليهم عبر عملية التبادل التجارى بينهم وبين بلدان المغرب الإسلامى العربى، واتخذت السلطنة من مدينة جاو عاصمة لها لتقترب بذلك من طرق القوافل التى تربط بين المغرب العربى والسودان.

وكان اتساعها واستقلالها قد اصطدم بحركة توسع سلطنة ملى على عهد منسى موسى فخضعت سنغى فترة من الزمان حتى دب الضعف فى أوصال ملى الأمر الذى أتاح الفرصة لرجال سنغى وعلى رأسهم ملكها

سنى على (١٤٦٤-١٤٦٢)م للظهور والتوسع وتكوين سلطنة واسعة الأرجاء، فاستولى على تمبكت، وسيطر على سهول غرب أفريقية.

وفى عهد اسكى محمد أخذت الدولة تستكمل توسعها بعد استعدادت عسكرية كافية، وظهر عليها السلوك الإسلامى الذى أضاف لها قوة كبيرة، ولاسيما بعد أن اتجه إلى مملكة تدعى مملكة موسى الزنجية (الوثنية) يدعوها للإسلام، ولكنها أبت عليه، ودارت بينهم معارك عديدة انتهت بسيطرة سنغى عليها.

ويوصف إسكى محمد هذا بفضائل عديدة حيث كان الجهاد فى سبيل الله هدفاً له الأمر الذى مكنه من بلوغ أقصى درجات الاتساع فى المنطقة، وبما وضعه من نظم إدارية صالحة مكنته من السيطرة على رقعة كبيرة من الأرض فى غرب أفريقية، كما نظم جيوشه تنظيماً جيداً وفصل بين فرقه المتخصصة.

وقد تبع رحيل إسكى محمد أن تولى السلطنة مجموعة من الحكام الذين حملوا بعض إمكاناته، إلا أن النزاع فيما بينهم على عرش البلاد قد أضعف من شوكتهم وشوكة بلادهم مما أتاح الفرصة لسلاطين مراكش فاستغلوها، واستطاعوا فى عهد المنصور سلطان مراكش هزيمة قوات سنغى ودخول عاصمتهم جاو.

ثالثا: إمارات الحوصة

ويعيش شعب الحوصة شمال نيجيريا الحالية حيث تجمع فى المنطقة من هجرات البربر الذين كانوا يتجهون نحو الجنوب كل حين.

وتعددت إمارات الحوصة التى كونوها لأنفسهم فى شمال نيجيريا حتى بلغت سبع إمارات هى : إمارة بيرم وتعد أقدم تلك الامارات، وغوبير، وكانوا، وكانسينا، وزاريا، وزنفرة.

وقد تأخر إسلام أهالى الحوصة حتى وفد عليهم مجموعة من الفقهاء فى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى بلغوا أربعين رجلاً من تنبكت وجنى فعلموا ملكها تعاليم الإسلام، وأقاموا مسجداً، وطبقوا شريعة السماء الإسلامية فى بلاد كانو وما حولها.

ويبدو أن ازدهار الإسلام فى تلك الإمارات قد ازداد بعد أن بسط سلطان سنغى (اسكى محمد) نفوذه على هذه الإمارات فى القرن السادس عشر الميلادى، وعمل على تثبيت أركانه هناك.

رابعاً: سلطنة كانم وبرنو

استمر الاسلام ينطلق صوب الشرق دون عوائق تقف فى سبيل انتشاره ووصل إلى منطقة بحيرة تشاد فى ظروف تشابه الظروف التى حدثت لسلطنات سنغى، وملى، ومرت بالأدوار نفسها التى مرت بها تلك السلطنات حيث هاجرت طوائف من البربر الذين جاءو من الشمال الأفريقى إلى بحيرة تشاد فى شرقها وغربها.

وفى الوقت نفسه هاجرت مجموعات من شعب الزغاوة الذين يجمعون بين المؤثرات الزنجية والحامية، وانتشروا فى مناطق واسعة شملت ما بين دارفور وبحيرة تشاد، وهؤلاء الزغاوة قد استمروا على وثنيتهم حتى وفدت عليهم هجرة من الطوارق تملك مصادر قوة ونفوذ وثراء شكلت ما يمكن أن نطلق عليه ارستقراطية حاكمة خرج من بين ظهرانيها أول أسرة تحكمهم، وبالتالى سيطرت على المنطقة الواقعة شرق البحيرة، وأسست

سلطنة كانم هذه السلطنة التى كان لها مكانة هامة فى تاريخ السودان فى ذلك الوقت، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأسرة الحاكمة قد أطلقت على نفسها بنى سيف، ويرجعون نسبهم إلى حمير، وأن سيف بن زى يزن جدهم الأعلى.

توسعت مملكة كانم وازداد ثراؤها ونفوذها فى أواخر القرن الثالث عشر فى عهد ملكها دونامة الأول ثم سليمان وخليفته، كما صاحب ذلك اتساع تجارتها، وازدياد الحركة العلمية وازدهارها فى بلاد السلطنة، وتوطدت كذلك أواصر العلاقات الثقافية مع مصر وغرب أفريقية والمغرب العربى.

وبعد بضعة عقود انتقلت السلطة إلى فرع آخر من الأسرة نفسها، ونقلت حاضرتها من شرق البحيرة إلى غربها فى المنطقة التى تسمى بلاد برنو.

حدث هذا التحول فى عهد السلطان عمر بن إدريس (١٣٩٤ ـ ١٣٩٨)م بعد هجوم قبائل البلالة (أهل البلاد الأصليين) على استبداد الحكام وطردوهم من عاصمتهم بالشرق (جيمى)، فانتقلوا إلى الغرب، وعاودوا ازدهارهم هناك مرة ثانية بعد أن ساعدتهم الأقدار والظروف المحيطة بتفكك مملكة سنغى التى أشرنا إليها من قبل[١].

انظر : د. السعيد زق حجاج ـ الاستعمار الأوربى فى أفريقيا وآسيا ـ ١٤٠٧ ـ ١٩٨٧م ـ القاهرة ـ ص ٦ وما بعدها

وانظر : د / حسن أحمد محمود ـ الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ص ٤٨ وما بعدها

الفصل الثانى

الاتصالات الأوربية الأفريقية

تعددت أوجه الصلات بين الحبشة والبلاد العربية المختلفة خاصة المتاخمة لها منذ ما قبل الإسلام، وشهدت العصور المتعاقبة هجرات من اليمن وكذلك الحجاز الى الأراضى الحبشية تتحدث عنها بعض المصادر التى تعرضت لتاريخ المنطقة.(١)

ومن جهة أخرى ضربت الصلات الأوربية الحبشية فى بطن التاريخ أعماقا تصل إلى تاريخ الدولة الرومانية الشرقية التى كان لها علاقات وطيدة مع الحبشة خاصة إذا علمنا أن غزو الأحباش لجنوب الجزيرة العربية، واحتلالهم اليمن قبل الاسلام كان بالمساعدة البحرية التى قدمتها الدولة الرومانية لهم مما جعل البحر الأحمر بحيرة حبشية رومانية - فى ذلك الوقت.(٢)

وهذا الواقع التاريخى يجعلنا نعيد النظر فيما يصوره البعض من الباحثين فى العصر الحديث الذين أرخوا فترة التوسع الأوربى (بعد الكشوف الجغرافية) بما يفيد جهل الأوربيين بالحبشة وقلة زادهم المعرفى عنها (٣)، وهذا ينافى الحقيقة فى لحمها وسداها.

ففضلا عما ذكرناه من تلك الاتصالات والمساعدات التى قدمتها الدولة الرومانية للحبشة فى غزوها لجنوب الجزيرة العربية فإن الحروب الصليبية قد شهدت اتصالاً مباشراً ومؤثراً بين قادة هذه الحروب (الأوربيين) وبلاد الحبشة، ولعب الرهبان الأحباش فى القدس دوراً بارزاً فى مساعدة البرنس أرناط الذى استعان بهم فى حملته على الحجاز بغرض محاولة هدم الكعبة فى سنة ١١٨١م، كما قدم له الأحباش يد المساعدة فى حملته الثانية التى استهدفت ميناء عيذاب(٤) على الشاطئ الغربى الأحمر.

ولم تنقطع مساعدة الأحباش للقادة الأوربيين طوال فترة إقامتهم فى فلسطين سواء بإمدادهم بالمؤن أو بالتجارة معهم.[٥]

والمثال الثالث الذى بين أيدينا : ما يذكر عن تلك الوفادة التى أرسلها نجاشى الحبشة (داود ١٣٨٠ـ١٤١١م) إلى البندقية يطلب إقامة علاقات تجارية وغيرها بينهما، وقد تولى أمر هذه الوفادة شخص يدعى انطوان برشيلى.[٦]

هذه الاتصالات وغيرها لابد وأنها قد ألقت الضوء وعرفت أوربا بأخبار الحبشة وموقعها وسكانها، ومن غير المعقول أن تكون هناك اتصالات بهذا الشكل سواء ما كان فى القدس أو من خلال تلاقى التجار الأوربيين والأحباش فى سواحل اليمن والحجاز دون أن يتم تعارف بينهما، وتحديد موقع الحبشة على خريطة العالم بعكس ما يذكر عن جهل الأوربيين بذلك وغيره.

الاتصالات الأوربية بالحبشة فى القرن الخامس عشر

بدأ البرتغاليون عصر التوسع الأوربى الأول بالكشوف الجغرفية التى مهدوا لها بالسعى المستمر للحصول على علوم ومعارف العرب الملاحية، وكان لابد لهم من وسطاء استخدموهم للتجسس والعمل على جمع المعلومات المختلفة التى تعينهم على إتمام بغيتهم.

وجد البرتغاليون من اليهود كل عون ومدد فى هذا المجال حيث قامت مجموعة من يهود الأندلس بدور التجسس ونقل تلك المعلومات والمعارف التى ساعدهم على نقلها معرفتهم باللغة العربية، فقاموا برحلات إلى الشرق العربى الإسلامى براً وبحراً متظاهرين بأنهم مسلمون.

فقد قام جماعة من هؤلاء اليهود (الجواسيس) سنة ١٤٨٨م - قبيل رحلة فاسكو دا جاما - بالتخفى فى زى التجار البرتغاليين والسفر سرا إلى مصر، وعلى رأس هؤلاء ألفونسو دى بايفا، وبيرو دى كوفيلهام اللذان تمكنا من جمع معلومات قيمة عن تجارة البضائع الشرقية، والتقت هذه البعثة مع بعثة تجسس يهودية أخرى كان على رأسها إبراهام دى بيا، ويوسف لاميجو، وسافرت البعثتان معا إلى هرمز، ومنها إلى زيلع ثم انطلقوا إلى الحبشة.(٧)

ويبدو أن عروجهم على الحبشة كان لسببين رئيسين هما : جلاء بعض الغموض المحيط ببلاد الحبشة المترامية الأطراف، واكتشاف إمكاناتها.

والسبب الثانى : استطلاع مدى استعداد الحبشة النصرانية لمؤازرة الأوربيين فى تحقيق أهدافهم الدينية والسيطرة على طرق التجارة الدولية للاستفادة منها اقتصادياً وضرب العرب المسلمين فى أهم ركيزة لديهم وهى إشرافهم وانتفاعهم بمرور التجارة الشرقية فى بلادهم.

ويذكر البعض (٨) : أن بعثة كوفيلهام كانت موجهة خصيصاً لعقد تحالف بين البرتغاليين والأحباش، كما يذكر الباحث أن الحبشة قد قبلت هذا العرض بسبب التهديد الإسلامى الذى كان يحيط بها.

ونحن لانرجح ما ذهب إليه الباحث فى الجزئية الأولى حيث أن كوفيلهام قد زار عدة دول ومناطق ولم نسمع عن عقده تحالفات مع إحداها، وكما أن معظم المصادر التى اطلعتُ عليها قد أجمعت على أن مهمة كوفيلهام هى التجسس وجمع المعلومات لا عقد تحالفات.

وفى الجزئية الثانية : قبول التحالف بسبب التهديد الإسلامى نختلف مع الباحث فى أن التهديد لم يكن قد ظهر على السطح بشكل ملحوظ إذ أن هذا التهديد لم يحدث إلا بعد اتجاه العثمانيين نحو الشرق بل واستيلائهم على اليمن فى الخمسينات من القرن السادس عشر، ومدهم يد العون للتجمعات الإسلامية فى الحبشة ومناطق (الصومال) - فى حين أن رحلة كوفيلهام كانت قبل ذلك بأكثر من أربعين عاما.

وقد عادت البعثتان إلى لشبونة بعد ان جمع رجالها معلومات وبيانات عديدة عن التجارة الشرقية وأسعار بضائعها الحقيقية وعن بلاد الهند، وبلاد الحبشة، ودولة المماليك، وامكانات هذه الدول، كما جمعوا خارطات بحرية قدمت جميعها إلى أولى الأمر فى لشبونة ساعدتهم فى المضى قدما نحو إرسال بعثات الكشوف الجغرافية التالية للوصول بحرا إلى الهند.(٩)

وأدت هذه الجهود التجسسية الى نجاح رحلة فاسكوداداجاما فى اكتشاف الطريق إلى الهند وعبور رأس الرجاء الصالح وساعدت أيضا فى امتداد الذراع البحرية البرتغالية والأوربية عموما فى مناطق عديدة عربية

وأفريقية، مما نتج عنه ضياع عـوائد مرور التجارة على البلدان العربية التى تأثرت اقتصاديا من جراء ذلك تأثرا بالغا.

الاتصالات الحبشية بأوربا فى القرن الخامس عشر

لقيت المحاولات الأوربية لضم الحبـشة إلى المعسكر الصليبى الأوربى ضد سـيطرة المماليك على منطقة الشـرق الأوسط فى العصـور الوسطى ترحيبا من ملوك الحبشة وظهـر ذلك واضحا من خلال المشروع الذى تقدم به الملك الحـبشى اسـحق[١٠] فى سنة ١٤٢٧م للتـحـالف مع ألفونسـو الخامس ملك أرغونة ونابلى للاشـتراك فى إعداد حملة مشتركـة ضد مصر التى كانت لها سيطرة على كثير من البلاد العربية الإسلامية فى البر والبحر معا، وقد وجدت هذه الفكرة قبولا ورواجا عظيما فى أوساط أوربا[١١] إلا أن القدر لم يمهل الملك اسحق فـعاجلته المنية وأهلكتـه فى ذى القعدة سنة ٨٣٣هـ / ١٤٣٠م قبل أن ينفذ تحالفه مع الأوربيين.[١٢]

أما الاتصال الحبشى الثـانى مع أوربا فقد تم فى سنة ١٤٤١م عندما انتهز الملك الحبـشى (زرء يعقوب) فرصة انعقاد مـؤتمر صليبى فى فلورنسا للدعوة إلى اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية دعا إليه الامبراطو جون الثامن وحضـره بابا الفاتيكان (أوجـين الرابع) وقد بادر النجـاشى الحبشى بـإيفاد بعـثتـين مثّل الأولى : الأب أندراوس، ومـثل الثـانيـة الأب نيكوديم إلى المؤتمر، وتكلم المندوبان الحبـشيان حيث شرحـا للمؤتمرين أن لاخلاف فى العقيدة بين الكنيستين سـوى مسألة طبيعة المسيح[١٣]. ومع ذلك فلم يسفر المؤتمر عن نتيجة هامة، ولـم تتعد القرارات بشأن الحبشة حد الكلام.

إلا أن الأثر الواضح من هذه الاتصالات على العالم العربى الإسلامى ما أعقب ذلك من قيام النجاشى بهجومه العنيف على الممالك الإسلامية فى مناطق (الصومال - الحبشة - إريتريا)، وما أن وصلت أخبار هذه الإعتداءات الحبشية على المسلمين إلى أوربا حتى عمها الفرح والابتهاج الذى ظهر فى رسالة حنادى راسيك رئيس فرسان الاسبتالية برودس إلى شارل السابع ملك فرنسا فى ٣ من يوليو سنة ١٤٤٨م.(١٤)

وفى معرض حديثنا عن الملك زرء يعقوب واتصالاته بأوربا يجدر بنا أن نشير إلى استضافته وعنايته بمجموعة من الفنانين الأجانب الذين وجدوا منهم كل رعاية وتشجيع، كان من بينهم الفنان الإيطالى فرانكاليونى الذى قام برسم عدة صور لكثير من الكنائس التى شيدها زرء يعقوب أو التى آمر بتزينها.(١٥)

ورغم وجود اتصالات أخرى بين الحبشة وأوربا خلال القرن الخامس عشر إلا أننا نضرب الصفح عنها حتى لا يطول المقام بعيدا عن فترة الدراسة.

وقد أدت الاتصالات المبدئية بين البرتغاليين والأحباش إلى زيادة معلومات الأوربيين عن المنطقة العربية والإفريقية، وما حصل عليه الجواسيس من أخبار وأسعار وخرائط، واستعدادات حربية ومعلومات جغرافية وبحرية أدى كذلك إلى نجاح خططهم فى ضرب الاقتصاد العربى الإسلامى، والانتقال إلى مرحلة أخرى أكثر شراهة وعنفا بعد أن اطمأنوا إلى جذب التجارة الشرقية بعيداً عن البلدان العربية، وبدأوا يعدون العدة

لضرب العرب المسلمين فى عقر دارهم من جهة، وإغراق المنطقة الإفريقية بالبعثات التنصيرية من جهة أخرى تلك التى بدأت منذ آوائل القرن السادس عشر تتوالى على بلدان الحبشة وغيرها.[١٦]

وكان من بين نتائج تلك الاتصالات أيضا أن ظهر التفكير فى نقل تبعية الكنيسة الحبشية من الاسكندرية إلى روما تلك الفكرة التى ظلت تراود كثيرا من أباطرة وحكام الحبشة قرونا طويلة دون أن يجرؤ أحدهم على المضى قدما فى تنفيذها.[١٧]

وقد استهل القرن السادس عشر بمحاولة حبشية جادة للاتصال بالبرتغاليين وطلب مساعدتهم العسكرية فى مواجهة القوى الإسلامية والعربية فى المنطقة، وقد سطرت هذه المطالب فى رسالة الملكة هيلانة (والدة الملك لبنا دنقل[١٨]) إلى عمانويل ملك البرتغال سنة ١٥٠٠م[١٩] التى طلبت فيها الاتفاق مع البرتغال ضد سلطان المماليك فى مصر وأعلنت فيها استعداد الحبشة لإرسال جيوشها إلى البحر الأحمر لمواجهة المسلمين، وتحقيق نبوءة ظهور الملك المسيحى الذى يستطيع دحرهم والقضاء عليهم، وفى رسالتها أيضا توضيح عن عجز الحبشة المتمثل فى كونها دولة داخلية بعيدة عن البحر، ولكنها تستطيع إرسال أعداد غفيرة من الجنود لمعاونة الأسطول البرتغالى.

وظهرت فى الأعوام التالية محاولات للاتصال البرتغالى بالحبشة عندما اتجه أسطول مكون من عشرين سفينة فى إتجاه الشواطئ المصرية، فاستولى على جزيرة سومطرة فى سنة ١٥٠٥م ثم اتجه إلى عدن وتركها

إلى سواكن من أجل الاتصال بالأحباش، والاتفاق معهم على الهجوم على مكة والمدينة، وتحويل مياه النيل عن مصر إلا أنه لم يتمكن على ما يبدو من هذا الاتصال فأبحر من سواكن بقصد تدمير مكة والمدينة إلا أنه لم يستطع إنزال قواته على الشاطئ بسبب يقظة القوات المصرية المرابطة هناك وعاد خائبا حيث تتبعه الأسطول المصرى وألحق به هزيمة منكرة فى شوال سنة ١٥٠٨م على شاطئ الهند الغربى.(٢٠)

وفى سنة ١٥٠٩م تم أول اتصال مباشر بين الحبشة والبرتغال فى عهد القائد البرتغالى ألبوكيرك لتحقيق الأهداف التى سبق الإشارة إليها، وتضمن الاتفاق بينهما توفير مراكز بحرية لهم فى البحر الأحمر لمهاجمة الحجاز ومصر واليمن، وعلى الرغم من فشله فى السيطرة على أحد هذه الثغور إلا أنه اكتفى بضرب عدن وزيلع فضلا عن حصوله على معلومات كافية عن امكانات القوى المسيطرة على هذا البحر حتى يتمكنوا من التغلب عليها أو استقطابها إلى جانبه.(٢١)

وفى العام نفسه وصلت إلى العاصمة البرتغالية (لشبونة) بعثة أثيوبية برئاسة الراهب الأرمنى الرحالة ماتيوس الذى كان قد التحق ببلاط الملكة هيلانة وكان الهدف من رحلته إجراء تحالف مع البرتغاليين.

بيد أن هذه المعاهدة قد ظلت كغيرها حبرا على الورق نظرا لظروف كل من البرتغال والحبشة الخاصة وصعوبة الوصول إلى داخل الحبشة مما اضطر ماتيوس إلى البقاء فى أوربا ولم يعد إلى أفريقيا إلا فى عام ١٥٢٠م فى هذا العام وصلت فيه بعثة برتغالية بزعامة دورن رود ريجو دى ليما

وقد حملت معها كمية من البنادق، إلا أن البعثة قد خاب أملها عندما اصطدمت بالحقيقة المرة وجدت جيش الحبشة ممزقا مهلهلا فكتب وايت وى (أحد أعضاء البعثة) أن أول لقاء مع الأحباش كان خيبة أمل قاسية للبرتغاليين مما جعل حماسهم يفتر فترة طويلة.[٢٢] فى الوقت الذى كان فيه البرتغاليون يعولون فيه على التحالف مع الحبشة فى الحفاظ على طريق الهند وتجارته الشرقية الثمينة حتى أن البابا بيوس الرابع قد حذر البرتغاليين فى سنة ١٥٦٣م من أنهم إذا فرطوا فى أمر الحبشة وضاعت منهم فسوف تضيع منهم الهند أيضا.[٢٣]

كما فشلت حملة لوبوسوريز (الذى خلف البوكيرك) فى حملته على جده سنة ١٥١٩م[٢٤] بفضل التحصينات التى أقامها المماليك هناك وبفضل الجهود التى بذلها سلمان الرومى الذى أخذ فى مطاردة السفن البرتغالية وتتبعها فى جنوبى البحر الأحمر مما اضطرها إلى مغادرة مياهه مولية الأدبار صوب الهند.

والذى يهمنا فى هذا المقام هو أن هذه الحملة كان عليها إنزال أول بعثة دبلوماسية من البرتغال إلى السواحل الحبشية.[٢٥]

وبنزول العثمانيين إلى ميدان البحر الأحمر بعد بسط سيطرتهم على مصر والحجاز سنة ١٥١٧م وكثير من سواحل هذا البحر عمدوا إلى السيطرة على سواكن ومصوع لإغلاق الباب الساحلى على الحبشة ومحاولة قطع الاتصالات بين الحبشة والأوربيين.

وقد أخذ العثمانيين على عاتقهم مسئولية مواجهة البرتغاليين فى البحار الشرقية ولكنهم لم يحققوا نجاحا فى البداية فاتجهوا إلى مساعدة الزعيم المسلم أحمد بن جراى.(٢٦)

فقد شهد عصر لبنا دنجل النجاشى الحبشى هزائم متتالية على يد الإمام أحمد مكتسحا إمبراطوريته مما اضطر النجاشى إلى إرسال وفادة إلى ملك البرتغال وبابا الفاتيكان طالباً النجدة منهما تلك النجدة التى تأخرت حتى وفاته.

وقد ساعد العثمانيون الإمام أحمد فى جهاده ضد الحبشة وأمدوه بالأسلحة والعتاد وخاصة الأسلحة النارية التى كان من بينها المدافع مما شجعه على المضى قدما فى إعلان ثورته على الإمبراطور الحبشى وتقدم مكتسحا الأجزاء الشرقية من الحبشة ووصل إلى شاطئ النيل الأزرق بعد أن هزم الإمبراطور فى معركة شمبرى كورى ولم يسع الإمبراطور سوى الفرار أمام جيش الإمام وشجعته الملكة هيلانة على إرسال رسله إلى البرتغال لنجدته.

ومات الإمبراطور فى سنة ١٥٤٠م وهو يرى بلاده ممزقة ومهلهله يسيطر على أغلبها المسلمون فخلفه جلاوديوس وبعد عشر سنين وصلت نجدة برتغالية مكونة من أربعمائة من الفرسان البرتغالية بقيادة كرستوفر دى جاما ومعها عتاد مكونّ من مدافع وبنادق ترافقهم بعثة كاثوليكية من اليسوعيين وبمساعدة هذه النجدة البرتغالية المسلحة تسليحا حديثا تمكن الأحباش من هذيمة قوات الإمام أحمد وقتله أيضا (٢٧) سنة ١٥٤٢م.

ويذكر عثمان صالح سبى [٢٨]: أن الإمام أحمد قد خاض غمار معركتين مع الأحباش - فى وجود البرتغاليين - أصيب فى الأولى بجروح بعد أن ألحقت الأسلحة البرتغالية النارية الحديثة خسائر فادحة بجنوده مما اضطره إلى الانسحاب نحو قواعده فى الشرق مستنجداً بالعثمانيين فى اليمن الذين أمدوه بعشرة مدافع وبعض البنادق والفرسان شجعته على معاودة الهجوم على الأحباش والبرتغاليين فى معركة حامية أباد فيها نصف القوات البرتغالية، وقتل قائدها كرستوفر داجاما.

وقد دفعه هذا الانتصار إلى الشعور بقوة مركزه فأعاد النجدة العثمانية إلى اليمن خوفا من تسلطها على مركزه إلا أن جلاوديوس قد التقط أنفاسه وأعد عدته للمعركة الفاصلة التى أسفرت عن هزيمة الإمام أحمد بن جراى وإصابته إصابات بالغة أدت إلى وفاته، وتفرق جيشه الذى أنهكه طول فترة المعارك. [٢٩]

وكان من نتائج وآثار إستعانة الأحباش بالبرتغاليين وما حققوه لهم من قلب الموازين الحربية وتحقيق النصر الحبشى على المسلمين فى المنطقة أن خيل للبرتغال خاصة والكاثوليك عامة أن الحبشة قد خلصت لهم فأرسلوا إلى الامبراطور جلاوديوس بعثة برتغالية برياسة رودر يجز ومعه مبشران من الآباء اليسوعيين وطلبوا من الامبراطور الاعتراف بالحماية البرتغالية له وتحويل تبعية الكنيسة الحبشية إلى كنيسة روما بعد أن يقطع علاقاته بالكنيسة المصرية إلا أن جلاوديوس (الامبراطور الحبشى) قد رفض هذا العرض ولم يكتف بذلك بل وضع كتابه المشهور (الاعتراف بالايمان) دفاعا عن مذهبه وعقيدته.

حاول البرتغاليون إشعال نار الثورة على الامبراطور لزلزلة أركان دولته فى محاولة للضغط عليه ولكنهم فشلوا فى ذلك فشلا ذريعا. وعندما إزدادت مساعداتهم للثوار إلى حد قد أقلق الامبراطور مما اضطره إلى دعوة المطران البرتغالى لمقابلته وأمره فى لهجة قاسية أن يوقف جميع نشاطاته هو والكاثوليك الذين معه جميعا وأن يترك البلاد على الفور ويرحل. (٣٠)

ومن عجيب ما يذكر ما قرره أحد الباحثين (٣١): من أن البرتغاليين والكاثوليك قد حدث بينهم وبين العثمانيين الموجودين فى سواحل مصوع وسواكن اتصال واتفاق لتسهيل سبل دخول البرتغاليين إلى الحبشة نظير رسوم معينة يدفعها البرتغاليون، ولانستطيع أن نسلم بما جاء به الباحث فى الوقت الذى كان الصراع ناشبا أظفاره فى ذاك الوقت بين العثمانيين والبرتغاليين بل كان من بين الأسباب الرئيسية فى تمسك العثمانيين بمنطقتى سواكن ومصوع هى منع اتصال البرتغاليين بالأحباش والحيلولة دون اتحاد الطرفين.

والشئ نفسه يذكر على ما أورده الباحث من أن البرتغاليين قد اتصلوا بالأمير نور بن مجاهد (خليفة الإمام أحمد بن جراى) العدو الأول للأحباش وأنهم وعدوه بإرسال قوات من الهند لمساعدته ضد الحبشه.

ولم يوافقهم على تحويل التبعية سوى الامبراطور سوسنيوس (١٦٠٧-١٦٣٢)م الذى كان يرى أن الكاثوليك والبرتغاليين هم القادرون على أن يخرجوا ببلاده من عزلتها ويصلوها بالعالم الخارجى فما لبث أن

اعتنق المذهب الكاثوليكى سـرا سنة ١٦١٩م، وجاهر به سنة ١٦٢١م معلنا انفصاله عن الكنيسة المصرية والمذهب اليعقوبى السكندرى.(٣٢)

مما دفع رجال الدين الوطنيين للانضمام إلى أعـدائه وإشعال الثورات ضده فى جميع أنحاء الحبشة فأثار ذلك أقرب الناس إلى الامبراطور وعلى رأسهم ولده وقائد جيـشه فاسيلاداس الذى كان سببـا فى عودة الامبراطور إلى رشدة ونبذ تبعية للكنيســة الغربية فى روما حيث اضطر الامبراطور فى آخـر أيامه أن يطرد البطريرك وقـساوسـته مـن اليسـوعيين ليـخلى مكانه للمطران المصـرى نظرا لأنه قد قرر عـودته تبعيـته إلى كنيـسة الاسكندرية بمصر ولم يـكتف بذلك بل قام بطرد كل البـرتغاليين من الحـبشـة وحرق كتبهم وتدمـير كل أثر لهم فى البلاد وأخيرا - قبـيل وفاته تنازل عن العرش لابنه فاسيلاداس واعتزل فى دير حتى مماته.

وقد ترتب على تلك الأحداث أن أعاد النجاشى الحبشى الجديد فتح العـلاقات مع مـصر حـتى ترسل مطران مصـريا جديدا كـما فـتح أبواب الاتصالات مع جيـرانه من الدول العربية خاصـة مع إمام اليمن.(٣٣) فقد أرسل امبراطور الحبشة الجديد (فاسيلاداس) رسولا من لدنه وبصحبته هدايا من الرقيـق والسلاح الحبـشى إلى الإمام اليـمنى (المؤيد بالله سنة ١٧٥٢م يطلب مندوب يمنـى ليفـضى إليـه بسـر لايستـطيع أن يسطره فى الأوراق والمراسـلات إلا أن الإمام المؤيد بالله قـد أعاد الرسـول الحبـشى محـملا بالهدايا دون أن يجـبه إلى طلب الامبـراطور إنتظارا لرسول آخر يبعـثه إذا كان جادا فى طلبه.

https://alborDj.blogspot.com

وبالفعل أعاد الامبراطور إرساله مندوب مسلم يدعى سالم بن عبد الرحيم ولكنه وصل إلى اليمن فى عام ١٧٥٧ بعد وفاة المؤيد بالله فدفع بالرسالة الحبشية إلى الإمام المتوكل على الله فاعتقد بجدية طلبه وأوفد إليه بعثة يمنية على رأسها الحسن بن أحمد الحيمى.

وقد اعتقد الإمام بأن الامبراطور ينشد من مراسلاته ومن خلال المندوب المسلم الذى حمل الرسالة أن يعلن إسلامه وحمل الحسن الحيمى معه هدايا فاخرة تكونت من خلع الديباج العجيبة ومطارف الملوك الثنية القشيبة والسيوف القاطعة والدروع السابغة والبنادق الفاخرة البالغة، مع شئ من آلات الخيل النفيسة والأتراس.

وقد وصل الحسن الحيمى إلى الامبراطور بعد رحلة شاقة ولكنه صدم بطلب الامبراطور إقامة علاقات ود بين الحبشة واليمن فخاب ظنه حيث كان يعتقد ويعتقد معه إمامه المتوكل على الله بأن الامبراطور إنما يريد أن يُعلن إسلامه.[٣٤]

كما كان من بين النتائج التى أعقبت تحول البلاد الحبشية من الكنيسة اليعقوبية الشرقية بالاسكندرية إلى الكنيسة الكاثوليكية بروما ثم الارتداد إلى الشرقية مرة أخرى وطرد الكاثوليك من الحبشة كل ذلك أدى إلى تسلط رجال الدين على مظاهر الحياة الحبشية خاصة بعد أن كان لهم دور ملموس فى إجبار الامبراطور على التنازل عن سلطاته لابنه.

وقد استمد رجال الدين هذه القوة من مصر وكنيستها إلا أن الأخيرة كانت تعانى حالة من الضعف والانحلال انعكس أثره بالتالى على الوضع

والحالة فى الحبشة لأن فاقد الشئ لا يعطيـه. فمنذ بداية القرن السابع عشر كانت مجموعة السـلاطين الأقوياء قد ولت ونشأ صراع بين موظفى الدولة العثـمانيـة إضافة إلى ظروفـها الخارجـية التى سـاءت مما أدى إلى ضعف السلطة الحكومية المركزية على الولايات رويدا رويـدا، وأصبحت مصر فى نهاية القرن السـابع عشر وما يليه نهبـا مقسما بين الحاكم التـركى (الباشا) وقادة الجند العثمانيين وزعماء فكثـرت الضرائب وسادت الفوضى فى كثير من أوجه الحيـاة المصرية(٣٥) وانعكس أثر ذلك على الكنيسـة المصرية التى كانت تمد الحبشة بعناصر قوتها.

ولم تكن كنيسة الإسكـندرية وحدها هى التى قد أصابها مـا أصابها من ضعف وسوء، فقد أصاب الأزهر (وهو أكبر مـؤسسة علمية إسلامية) ما أصاب الحيـاة الفكرية فى مصر الاسلامية، وانكمشـت حركة التعليم به نظراً لتعمد العثمانيين وتابعيهم فى مصر عدم النفقة عليه، إلا أنه مع ذلك قد استطاع الصمود بـعض الشئ، والحفاظ على شئ لا بأس به من مكانته وهيبته القديمة.(٣٦)

وعلى كل فـقد خـبا نجم البـرتغاليين وانزوى دورهم التـاريخى فى المنطقة فى نهـاية القرن السادس عـشر وأوائل السابع عـشر بسبب فـقدان استقلالهم وضمـهم إلى أسبانيا سنة ١٥٨٠م(٣٧)، وأسباب أخرى عديدة نضرب الصفح عن ذكرها.

الاتصالات الفرنسية مع الحبشة

لم تكن فـرنسا بعيـدة عن ما يدور فى الشـرق ولكنها كـانت ترقب

الصـدام الناشب أظفاره بين الـبرتغـاليين من جـهة وكل من المماليك ثم العثمانيين من جهة أخرى.

فـقد كـانت هناك رحلة فـرنسيـة خـاصة إلى الشـرق العـربى سنة ١٥٢٩م، كـما أبحـر الفرنسـى المدعو بيليـو على طول السـاحل الجنوبى للجزيرة العربية سنة ١٦١٩ - ١٦٢٠م وتلى ذلك المحاولات التى اعتنى بها كالبور وزير المالية فى عهد لويس الرابع عـشر الذى كان معنيا بالتعاون مع العثمانيين وإعادة مجد التجارة فى طريقـها القديم بالبحر الأحمر ومحاولته تأسيس بعض القنصليات فى موانئه.[٣٨]

وكان أول اتصـال بين الفرنسيين والأحـباش فى أوائل القـرن الثامن عشر عندما أخذ الكاثوليك يفكرون فى طريقة للاتـصال بالحبشة بعيدا عن البرتغـاليين واليسـوعيين فأرسل لويس الرابع عـشر إلى قنصله فى دمـياط يأمره أن يهتبل فرصة ملائمة لفتح علاقات سياسية مع الحبشة.

وقد انتـهز القنصل الفرنسى فرصـة وجود مندوب حبشى فـى مصر يبحث عن طبـيب يعالج الامـبراطور[٣٩] تكلاهيمانـوت من مرض أصابه فـأشار القنصل إلى الطبـيب الفـرنسى بونسيـه القـيام بهـذه المهمـة[٤٠]، وإستثمارها فى إقامة علاقات ودية وسياسية مع امبراطور الحبشة ريثما تحين الفرصـة الملائمة لبذل الجـهود فى إقناع الأحبـاش بضرورة تحويل الكنيـسة الحبشية إلى الغرب الكاثوليكى.

اصطحب بونسيـه معه مـبشرا من الجـزويت يدعى بريفيـدينيه وبدء رحلته من أسيـوط مخترقا الصـحراء الغربية حيث استغل هذه الرحلة فى

جمع المعلومات عن مملكة الفونج وتجارة السودان حتى وصل إلى سنار فوصف اتساع أراضيها ووصف العاصمة التى تقع على الضفة الغربية للنيل الأزرق وذكر أن عددهم تجاوز المائة ألف نسمة.[(٤١)]

وانتقل منها إلى الحبشة حيث نجح الطبيب بونسيه فى علاج الامبراطور وعاد حاملا معه هدية من الامبراطور الحبشى إلى الملك لويس الرابع عشر فى فرساى.[(٤٢)]

وقد شجعت هذه النتائج التى حققها الطبيب أن يعاود لويس الاتصال بالحبشة طمعا فى استمرار العلاقات الودية بين البلدين مما يساعده على تحقيق الهدف الكاثوليكى المنشود فأرسل إلى قنصله فى دمياط مرة ثانية (جاك لينو دى رول) أن يذهب بنفسه إلى الحبشة وفى طريقه مر على سنار (عاصمة سلطنة الفونج) إلا أن الأنباء التى وصلت إلى السلطان أفادت بأن البعثة موفدة إلى الحبشة بغرض تعليم رجالها صناعة البارود والمدافع، والعمل على تحويل مجرى النيل الأزرق وقد روج لهذه الاشاعات بعثة المبشرين الفرنسيسكان التى كانت تعمل بالتبشير فى بلاد الفونج وفى أثيوبيا وكانت ترى فى البعثة الجديدة منافسا خطيرا لها.

وقد ساعد على ترويج هذه الاشاعات أن فيضان عام ١٧٠٥م قد جاء صدفة منخفضا كثيرا عن المعتاد.

مما جعل سلطان سنار (بادى الأحمر) ١٦٩٢-١٧١٦م يأمر بقتل (دى رول) ورجاله فى ٢٥ من ديسمبر سنة ١٧٠٥م[(٤٣)]. وأدى ذلك إلى توتر العلاقات بين الحبشة وملوك الفونج وكان من أثر ذلك أيضا ان تعطلت

التجارة التى كانت تأتى إلى مصر عن طريق سنار فترة طويلة من الزمن.[٤٤]

ويبدو أن هذه الاشاعات تحمل بين طياتها بعض الحقيقة إذ كانت لفرنسا (حينئذ) أطماع، فوق ما قدمنا تتعلق بالتعاون التجارى مع الحبشة وجعلها سوقا لتصريف المنتجات الفرنسية، وبذلك كان عليها إثارة الفتنة بين الحبشة ومملكة سنار حتى يتوقف طريق التجارة الذى يمر بسنار، وفى المقابل تمد فرنسا الحبشة بالاسلحة والمدربين لتقويتها على ضرب سنار كما ان الكنيسة القبطية بمصر كان لها دور فى تبصير ملك سنار بما يدور وأرسلت إليه بما نمى إلى علمها من اتفاق مشبوه بين الفرنسيين والأحباش ضد دول المنطقة مما دفعه إلى قتل دى رول.[٤٥]

الاتصالات الانجليزية الحبشية

جيمس بوس[٤٦]

بدأ جيمس بروس رحلته من الجزائر تلك الرحلة التى بدأها بموافقة انجلترا واتسمت بالمغامرة فى معظم مراحلها وظهر فى القاهرة سنة ١٧٦٨م ومعه سكرتير إيطالى يدعى (يويجى بالوجانى) الذى مات فى غندار تاركا رفيقه بروس وحيدا فى إكمال رحلته إلى الحبشة التى وصلها فى سنة ١٧٧١م.[٤٧]

وقد أقام بروس فى الحبشة عدة سنوات كان فيها موضع احترام الجميع، حتى أنه عين حاكما لإحدى المقاطعات الحبشية هى مقاطعة رأس القيل بعد نجاحه فى معالجة الامبراطور الصغير من مرض أصابه.

وتمكن فى النهاية من اكتشاف بحيرة طانا ومخرج النيل من طرفها الجنوبى، وكذلك نهر أباى الصغير، ثم اتجه إلى الغرب حتى وصل القاهرة عن طريق النيل[٤٨] وكان من نتائج رحلته الطويلة الشاقة تمكنه من عقد اتفاقية مع محمد بك أبو الذهب فى مصر سنة ١٧٧٥م بعد عودته من الحبشة نصت على أن البضائع الهندية التى تصل إلى السويس تدفع ضرائب تبلغ ٨٪ بدلا من ١٤٪ لحاكم جدة.[٤٩]

وترجع أهمية رحلته ونتائجها فيما صوره لنا عن الحياة فى مملكة سنار وممالك الحبشة، وفيما كتبه أيضا عن مصر وغيرها، ويغلب على الاعتقاد أن رحلة بروس وتفصيلاتها الدقيقة قد جلبت على المنطقة العربية والأفريقية أطماع الأوربيين وأهدافهم الاستعمارية الإقتصادية منها والدينية، وشجعت كثيرا من الهيئات التنصيرية على مختلف الجبهات أن تنزل بثقلها فى القرن التالى (التاسع عشر) وتختبئ فى عباءة المستعمرين أن تمهد لهم السبيل ثم تحتمى بهم فى محاولة مستميتة لاستنزاف خيرات القارة الإفريقية وجيرانها من الآسيويين العرب الذين سقطوا تحت نير الاستعمار منطقة تلو الأخرى، ونشر الدين المسيحى بين الوثنيين وغيرهم هناك.

الهوامش

(١) لم يتوقف المهاجرون عند الساحل بل توغلوا فى الداخل وعاشوا فى مملكة أكسوم التى تركت آثارا مشهودة.

انظر : دائرة المعارف الإسلامية ـ المجلد الثالث ـ ص١٦١ .

وقد كون المسلمون إمارات ومناطق خاصة بهم فيما سمى بعد ذلك إقليم الطراز الإسلامى الذى يقال له الزيلع.

انظر: المقريزى (أحمد بن على بن عبد القادر) ـ الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ـ مصر سنة ١٨٩٥ ـ ص٢ .

(٢) الحيمى اليمنى (الحسن بن أحمد) ـ حديقة النظر وبهجة الفكر فى عجائب السفر المعروف بكتاب : سيرة الحبشة ـ تحقيق د/ مراد كامل ـ الدار اليمنية للنشر والتوزيع ـ ط٢ ـ ١٤١٣هـ/ ١٩٩١م ـ ص٥ ، ٢٨ .

(٣) **انظر** : على سبيل المثال

د/ عبد العزيز محمد الشناوى ـ أوربا فى مطلع العصور الحديثة ـ الأنجلو المصرية ـ ط٤ ـ مصر ـ ١٩٨٢م ص١٣١ .

أمال أبراهيم محمد ـ الصراع الدولى حول البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ـ ط١ مركز الدراسات والبحوث اليمنى ـ صنعاء ـ ١٩٩٣م ـ ص٣١، ٣٢.

وانظر: جيمس دفى ـ البرتغال فى أفريقية ـ ترجمة د/ جاد طه ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ ١٩٦٤م ص٣٣.

(٤) وصفها ياقوت بأنها : "بليدة على ضفة بحر القلزم هى مرسى المراكب التى تقدم من عدن إلى الصعيد"

انظر: ياقوت الحموى (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى) ـ

معجم البلدان جـ٤ ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٩ ـ ص١٧١ .

(٥) وثائق عن الصومال ـ الحبشة ـ اريتريا ـ أحمد برخت ماخ شركة الطوبجى للطباعة والنشر ـ اقاهرة ـ ١٩٧٢م ـ ص٧٩ .

(٦) د/ زاهر رياض ـ تاريخ أثيوبيا ـ معهد الدراسات الأفريقية الأنجلو المصرية ـ ١٩٦٦م ـ ص٧٦ .

(٧) د/ عبد العزيز محمد الشناوى ـ أوربا فى مطلع العصور الحديثة ص ١٢٠ .

وانظر: د/ فاروق أباظة ـ عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ـ ١٨٣٩ـ١٩١٨م ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٧ ـ ص٣٥ .

(٨) نيقولاى إيفانوف ـ الفتح العثمانى للأقطار العربية ١٥١٦ـ١٥٧٤م ـ ترجمة يوسف عطا الله ـ الفارابى ـ ١٩٨٨م ص١٥١ .

(٩) د/ عبد العزيز الشناوى ـ أوربا فى مطلع العصور الحديثة ص١٢٠، ١٢١ .

(١٠) هو اسحاق بن الحطى داود بن سيف أرعد، ويطلق عليه البعض اسم إبرم الذى عظم أمره عندما وفد إليه بعض المماليك الجراكسة، وصنعوا له آلات حربية من سيوف ورماح وغيها بعد أن كان الحبش يعتمدون على الحراب يرمون بها، كما قدم عليه الطنبغا مفرق من أمراء الدولة بمصر فعلم الجيش الحبشى كثيرا من فنون الحرب، وآخر قبطى يعرف بفخر الدولة رتب لإسحاق مملكته ودواوينه بعد أن كانوا همجا، فلما تحضرت دولته وقويت شوكته انقلب على ممالك المسلمين يقتل ويسبى ما لا يحصى منهم، حتى قضى على شوكة الممالك الاسلامية فى الحبشة .

انظر: المقريزى ـ الإلمام بأخبار من أرض الحبشة من ملوك الاسلام ـ ص٤، ٥ .

(١١) وثائق عن: الصومال الحبشة اريتريا ـ أحمد برخت ماخ ـ ص٧٩ .

(١٢) المقريزى - الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص٥ وقد ذكر د/ زاهر رياض فى كتابه تاريخ أثيوبيا - ص٧٩ أن اسحق قد قتل سنة ١٤٢٧م إلا أننا نرجح ما ذكره المقريزى لأنه كان معاصرا للملك اسحاق وسمع بأخباره من الأحباش الذين قابلهم أثناء مجاورته بمكة.

(١٣) د/ زاهر رياض - تاريخ أثيوبيا - ص٨٠.

(١٤) وثائق عن الصومال - الحبشة - اريتريا - أحمد برخت ماخ - ص٨٠

(١٥) د/ زاهر رياض - تاريخ أثيوبيا - ص٨١.

(١٦) آمال إبراهيم محمد - الصراع الدولى حول البحر الأحمر - ص٣٢.

(١٧) تمكن الأسقف فرومينيوس الذى كان داعيا سياسيا للاستعمار البيزنطى من اقناع النجاشى الحبشى عزانا باعتناق الديانة المسيحية حوالى سنة ٣٥٠م، ومنذ هذا التاريخ بدأ انتشار المسيحية فى كثير من المناطق العربية والحبشة.

انظر: أحمد حسين شرف الدين - اليمن عبر التاريخ - ط١ ١٩٦٣م - ص١٥٥.

وتجدر الإشارة إلى أن الحبشة كانت تتبع كنيسة الاسكندرية على المذهب اليعقوبى الذى يتمسك به أهالى الحبشة ولا يرضون به بديلا بل كانوا طوال تاريخهم يعادون من سواهم من أصحاب المذاهب والديانات الأخرى، ويتشددون فى ذلك، كما للحبشة مطران يرسله بطريق مصر بعد سؤال الحاكم المصرى، وكثيرا ما كانت الخلافات تؤثر فى إرسال المطران عندما تسوء العلاقات بين مصر والحبشة فتنقلب الأوضاع فى بلاد الحبشة، ولا يتم تثبيت النجاشى إلا بمباركة المطران المصرى.

انظر: المقريزى - الإلمام بأخبار من أرض الحبشة من ملوك الإسلام ص٣.

وكان على المطران أن يتوج الامبراطور، ويعين القسس فى جميع أنحاء الحبشة، هؤلاء القسس الذين يعمدون الأطفال، ويعقدون الزواج، ويصلون على الموتى، ويتولون توضيح الجوانب الفقهية حلالا وحراما.

انظر: الحيمى اليمنى ـ حديقة النظر وبهجة الفكر (سيرة الحبشة) ص ۳۰.

(١٨) لبنا دنقل (يعنى وعاء العذراء) ارتقى العرش الامبراطورى فى الحادية عشرة من عمره (١٤٦٤ـ١٥٤٠م) وكان أكبر أبناء الامبراطورة هيلانة فلم ينازعه أحد من إخوته، وقد ورث عن أبيه زرء يعقوب دولة مستقرة

انظر : د/ زاهر رياض ـ تاريخ أثيوبيا ـ ص ٨٣.

(١٩) نص الرسالة :

بسم الله الرحمن والسلام على عمانويل سيد البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة

تحياتى إليكم، ودعواتى لكم.

لقد وصل إلى مسامعنا أن سلطان مصر جهز جيشا ضخما ليضرب قواتكم ويثأر من الهزيمة التى ألحقتها به قواتكم فى الهند، ونحن على استعداد لمقاومة الكفرة بإرسال أكبر عدد من جنودنا فى البحر الأحمر، وإلى مكة، أو باب المندب وإذا أردتم نسير إلى جدة أو الطور وذلك لنقضى قضاء تاما على جرثومة الكفر. ولعله قد أن الوقت لتحقيق النبوءة القاتلة بظهور ملك مسيحى يستطيع فى وقت قصير أن يبدد الأمم الاسلامية المتبربرة ولما كانت مملكتنا فى الداخل وبعيدة عن البحر فإن الاتفاق معكم ضرورى إذا أنكم أهل بأس شديد فى الحروب البحرية.

انظر : وثائق عن الصومال الحبشة اريتريا ـ ص٨١، ٨٢.

(٢٠) وثائق عن الصومال الحبشة اريتريا ـ ص٨٢، ٨٣.

وانظر: عبد الباسط حسن عبد العزيز الصراع البرتغالى المملوكى فى أواخر عصر المماليك ـ رسالة ماجستير فى كلية اللغة العربية بالقاهرة ١٩٨٧م ـ ص١٠٤، ١٠٥.

(٢١) فاروق أباظة ـ عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ص٤٢.

(٢٢) نيقولاى إيفانوف ـ الفتح العثمانى للأقطار العربية ص١٥١، ١٥٢.

(٢٣) د/ محمود صالح منسى ـ تاريخ الشرق العربى الحديث ـ دار الوزان للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٩٠م

(٢٤) ولم يتمكن سواريزسوى من تدمير ميناء زيلع الاسلامى مما عزز آمال الأحباش فى إمكانية السيطرة الحبشية على الساحل بمساعدة البرتغاليين

انظر : عثمان صالح سبى ـ تاريخ اريتريا ـ ١٩٧٤م ـ ص١٢٨

(٢٥) ابن إياس (محمد إبن أحمد) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ تحقيق محمد مصطفى جـ ٤ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٤م ـ ص٣٠٧، ٨ ٣.

وانظر : با مخرمة ـ البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه ـ تحقيق د/ محمد عبد العال ـ دار المعرفة الجامعية ـ إسكندرية ـ ١٩٨٩م ـ ص١١٢ وما بعدها.

وانظر : د/ فاروق أباظة ـ عدن والسياسة البريطانية ـ ص٤٧.

(٢٦) ولد الإمام أحمد فى مدينة هرر سنة ١٤٩٢م من أبوين صوماليين ورحل إلى مدينة زيلع بعد أن حرقها البرتغاليون وتعلم فنون الحرب والفروسية فاشترك فى عدة غزوات ضد الأحباش حتى انفرد الإمام أحمد بالزعامة على تلك البلدان.

انظر : وثائق عن الصومال الحبشة إريتريا ـ ص٩٨ وما بعدها.

(٢٧) د/ زاهر رياض ـ تاريخ أثيوبيا ـ ص٩٢ وما بعدها.

وانظر : الحيمى اليمنى ـ سيرة الحبشة ـ ص٣٦ وما بعدها.

(٢٨) زعيم جبهة التحرير الاريترية فى الثمانينات من القرن العشرين فى كتابه : تاريخ أريتريا ص١٣١.

(٢٩) الحيمى اليمنى ـ سيرة الحبشة ـ ص٤١ وما بعدها.

وانظر : د/ زاهر رياض ـ تاريخ أثيوبيا ص٩٨ وما بعدها .

(٣٠) د/ زاهر رياض ـ تاريخ أثيوبيا ـ ص ٩٨ .

(٣١) د/ زاهر رياض ـ المرجع السابق ـ ص٩٩ .

(٣٢) كان الذى تولى إقناع الامبراطور سوسنيوس باعتناق الكاثوليكية هو الأب بدرو بايز .

انظر : عثمان صالح سبى ـ تاريخ اريتريا ـ ص١٣٦ .

(٣٣) د/ فاروق عثمان أباظة ـ عدن والسياسة البريطانية ـ ص٥٧ .

(٣٤) الحيمى اليمنى ـ حديقة النظرة بهجة الفكر (سيرة الحبشة) ـ ص١٠٧ وما بعدها .

(٣٥) د/ مصطفى محمد رمضان ـ دور الأزهر فى الحياة المصرية ابان الحملة الفرنسية ومطلع القرن ١٩ ط١ ـ ١٩٨٦ ـ ص٤٣ وما بعدها .

(٣٦) **انظر** : د/ مصطفى محمد رمضان ـ تاريخ الحركة الوطنية وجذور النضال المصرى ـ مصر ١٩٨٥ م ص ١ ، ٢ .

(٣٧) أمال إبراهيم محمد ـ الصراع الدولى حول البحر الأحمر ـ ص٤١ .

(٣٨) إختلف الدكتور مكى شبيكة فى كتابه السودان عبر القرون ـ ص٦١ مع كل من د/ زاهر رياض، د/ شوقى الجمل حيث ذكر أن المريض هو ابن الامبراطور وليس الامبراطور نفسه ولكنا نرجح ما ذكرناه .

(٣٩) د/ زاهر رياض ـ تاريخ أثيوبيا ـ ص ١٠٨

(٤٠) د/ شوقى عطا الله الجمل ـ تاريخ سودان وادى النيل ـ جـ١ ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٦٩م ـ ص٢٧٧ ، ص٢٦٨ .

(٤١) الان مورهيد ـ النيل الأزرق ـ ترجمة د/ نظمى لوقا ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٦٦ ـ ص٢٢٩ ، ص٢٣٠ .

(٤٢) د/ زاهر رياض ـ تاريخ أثيوبيا ـ ص١٠٨ .

(٤٣) د/ شوقى الجمل ـ تاريخ سودان وادى النيل ـ جـ١ ص ٢٩٩ .

وانظر : آمال إبراهيم محمد ـ الصـراع الدولى حول البحر الأحمر ـ ص٤١ ، ص٤٢ .

(٤٤) نعوم شقير ـ تاريخ السودان ـ تحـقيق د/ محمد إبراهيم أبو سليم ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٨١م ـ ص ١٠٨ ، د/ زاهر رياض ـ تاريخ أثيوبيا ـ ص١٠٨ .

(٤٥) د/ مكى شبيكة ـ السودان عبر القرون ـ ص٦٧ ، ٦٨ .

(٤٦) ولد بروس سنة ١٧٣٠م فى ضـيعة أسـرته بمنطقة كـينارد الاسكتلندية وأرسله والده ـ فى سن السادسـة ـ إلى لندن ليلتقى العلم على معلمين خـصوصيين وفى السادسـة عشرة من عـمره درس فى جامـعة أدنبره حتـى أرسل ثانية إلى لندن ليشغل منصبـا فى شركة الهند الشرقية ، وفى لندن دخل شريكا فى مـؤسسة تجارية ، وبموت زوجته فى السنة الأولى اعترته رغبة جامـحة فى السفر الانفرادى فوجد نفسه صوب فريـقيا خاصة بـعد أن عينته إنجلتـرا قنصلا لها فى الجزائر ، وكـان يشغله فى الوقت نفسه اكتشاف منابع النيل التى ظلت لغزا إحتار فيه الجغرافيون .

انظر : آلان مورهيد ـ النيل الأزرق ـ ص٢٨ وما بعدها .

(٤٧) آلان مورهيد ـ النيل الأزرق ـ ص٣١ .

(٤٨) د/ زاهر رياض ـ تاريخ أثيوبيا ـ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

(٤٩) آمال إبراهيم محمد ـ الصراع الدولى حول البحر الأحمر ـ ص٤٥ .

الفصــل الثــالــث

الكشــوف الجغرافيــة

استطاع البرتغاليون نقل معارف العرب وحضارتهم من اختلاطهم بالحضارة العربية فى الأندلس، وزادوا على ذلك ما تعلموه من فنون الملاحة على يد الجنويين (أهل جنوة) فبنوا السفن الكبيرة وأطلقوها تمخر عباب المحيطات والبحار، وكانوا أول من ارتاد مجال الكشوف الجغرافية.

تزعم هنرى الملاح حركة الكشوف باشتراكه فى الحملة التى أرسلها والده جون الأول ملك البرتغال لانتزاع مدينة سبتة التى تطل على الشاطىء الشمالى الإفريقى فى مواجهة أسبانيا، وهذه المدينة كان المسلمون يتخذونها رباطاً مغربياً مجاهداً ضد نصارى أسبانيا والبرتغال، وعينه أبوه حاكماً عليها سنة ١٤٥١م.

وقد فشل هنرى الملاح فى محاولة لاحتلال طنجة، فاتجه إلى الشواطىء المراكشية المطلة على المحيط الأطلسى، وقام بإنشاء ما يمكن أن نطلق عليه أكاديمية بحرية فى مدينة ساجر البرتغالية التى تقع على شاطىء البرتغال الجنوبى.

ومن هذا المقر العلمى فى ساجر أطلق عيونه ورجاله يجمعون كل المعلومات، والمصادر والخرائط، والاكتشافات التى حصل عليها لدراستها والتحرك للخطوات التالية بمعرفة ودراية كما سنرى فى نهاية القرن الخامس عشر حيث يستفيد منها بارتليمودياز. وفاسكوا داجاما.

وبالفعل استطاع البرتغاليون اكتشاف مجموعة من المناطق الأفريقية مثل جزائر ماديرا وجزر أزوره، فاحتلوها وسيطروا عليها، كما وصلوا كذلك الى مصب نهر السنغال، والرأس الأخضر، والأخطر من ذلك أنهم

وصلوا الى بلاد غانا، وبدأت عـملية اقتناص أهالى هذه المناطق الأفـريقية ونقلهم إلى أسواق أوربا (أسواق النخاسة) لبيعهم عبيداً هناك.

استمرت الكشوف الجغرافـية بعد وفاة هنرى الملاح وبعد تعطلها عدة سنوات بسبب القلاقل الداخلية، ثم اسـتؤنفت فى سنة ١٤٨٧م، وتزعمها البحار بارثـلميوديا ز الذى ابحر بمحـاذاة الساحل الغربى للقارة الأفـريقية، وتجاوز جنوب القارة حتى وصل إلى شرقهـا، ولكنه عاد سريعاً بسبب تمرد بحارته فى سـنة ١٤٨٨م ليكون بذلك أول من عبـر رأس العواصف الذى أطلق عليه ملك البـرتغال: رأس الرجاء الصـالح تيمناً بما يمكن أن يحقـقه هذا الكشف من نتائج.

وبعد عشر سنوات اهتبل فاسكواد داجاما الفرصة ليبنى رحلة جديدة على معلومـات من سبقوه فخـرج فى سنة ١٤٩٧ م من لشبونة (عـاصمة البرتغـال) ليصل إلى ماليندى فى الساحل الشـرقى لأفريقيا، ويعـبر بذلك رأس الرجاء الصالح.

وفى ساحل شـرق أفريقا طلب فـاسكو داجاما مـرشداً يصل به إلى الهند من حاكم ماليندى فـأمده ببحار عربى هو أحمـد بن ماجد الذى كان له باع طويل فى الملاحة، ومعرفة أسرار الرياح والنجوم وكيفية الاهتداء بها فى البحار والمحيطات، واستخدام بعض الآلات الملاحية لمعرفة الاتجاهات. وتولى بن ماجد تسيير سفينة القـيادة حتى وصل الى الهند ليكتمل اكتشاف البرتغاليين لهذا الطريق الجديد الذى كانت الأساطير تنسج حوله من وجود

الأشباح والجن به، وأن المياه تغلى فى هذا الطريق وتبتلع من يجرؤ على الخوض فيها وغير ذلك من الأساطير التى كانت منتشرة فى أوربا حينئذ.

ويرفض بعض المؤرخين رواية قيام عربى (ابن ماجد) بإرشاد سفن البرتغاليين إلى الهند فيذكر البعض:ـ

أن الذين قاموا بإرشادهم عبر المحيط الهندى هم اليهود الذين تصادف وجودهم فى ساحل أفريقيا الشرقى.

ويذكر البعض الآخر: بأن الهنود الذين كانوا على علاقة تجارية متواصلة بالساحل الشرقى لأفريقية هم الذين أرشدوهم للطريق إلى السواحل الهندية.

وفى الحقيقة فإن هذه الافتراضات وغيرها يمكن أن تصلح لأخذها فى الاعتبار، وليس هناك مايمنع حدوثها حتى يتمكن أحد المؤرخين من الحصول على أدلة قاطعة تقطع قول كل خطيب. الذى يعنينا فى هذا المقام هو وصول سفن البرتغاليين بقيادة فاسكوا داجاما إلى الشاطىء الغربى للهند، وحطوا قلاعهم فى ثغر كاليكوت سنة ١٤٩٨م، الأمر الذى شكل ضربة قاسمة للعرب المسلمين بعامة، وللمماليك الذين كانوا يحكمون العديد من الدول العربية آنذاك على وجه الخصوص، إذ عمد البرتغاليون إلى تحويل طريق التجارة الشرقية القديم إلى طريق رأس الرجاء الصالح الجديد.

كانت هذه هى النتائج الأولية التى تبعتها نتائج أخرى سلبية على الجانبين الأفريقى، والعربى الإسلامى.

فقد أحدث هذا الاكتشاف استعمار البرتغاليين للعديد من المراكز الأفريقية، وإطلاق أيديهم فى عملية جلب الرقيق، واستخدامه فى بلادهم، وفى المستعمرات التى باتوا يكتشفونها ويسيطرون عليها، ولاسيما فى العالم الجديد.

وقد استمرت عملية استنزاف امكانات القارة الأفريقية البشرية حتى بدأت حركة محاربة تجارة الرقيق فى لندن سنة ١٧٧٢م عندما دعا جرنفيل شاربى البريطانى الجنسية إلى إلغائها، وفى النهاية نجح جرنفيل فى استصدار قانون حظر تجارة العبيد فى بريطانيا سنة ١٧٧٢م، وتبعه داع آخر هو وليم ولبر الذى كان نائبا فى مجلس العموم البريطانى، وتمكن من تسليط الأضواء على قضية الرق فى العالم فصدرت قوانين تمنع هذه التجارة فى جميع أنحاء الامبراطورية البريطانية فى سنوات (١٧٨٨_١٨٠٧_١٨٣٣)م.

نتائج حركة الكشوف الجغرافية:

استقر البرتغاليون فى شرق أفريقية واتخذوا من ذلك شكل التحدى الصريح للوجود العربى على السواحل الشرقية الافريقية. وقد ترتب على سيطرة البرتغاليين على تجارة الشرق وتحويلها إلى رأس الرجاء فقدان منطقة البحر المتوسط لنشاطها الاقتصادى والحضارى مما ترك أثره بطريقة غير مباشرة على العلاقات العربية بشعوب غرب أفريقية إذ عانت هذه الشعوب

تخلفاً حضارياً واقتصادياً وثقافياً بانقطاع الصلات التى كانت تربطها بمنطقة البحر المتوسط وبالتالى تحولت وجهتها إلى منطقة المحيط الأطلنطى حيث بدأت عمليات الاستنزاف البشرى للقارة الأفريقية التى استمرت ثلاثة قرون امتدت من القرن الخامس عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر وهى عمليات اشتراك فيها إلى جانب البرتغاليين كل من الانجليز والفرنسيين والهولنديين وغيرهم.

البرتغاليون فى غرب افريقيا:

بدأت للبرتغال النشاط الكشفى - كما أشرنا - بالجهود التى قام بها الأمير هنرى الملاح فى اكتشاف بعض المناطق الساحلية من غرب أفريقية ففى عام ١٤٣٤م تم اكتشاف رأس بوجادور على ساحل ريودى آورو وبعد ذلك بعامين وصل البرتغاليون إلى رأس بلاتكو ثم إلى رأس فرد وفى عام ١٤٥٠ وصل المستكشف البرتغالى ديجوميز إلى ساحل جامبيا واستطلع من القبائل الأفريقية المقيمة فى المنطقة القريبة من مملكة مالى حيث علم منهم أنهم يتبعون سلطانها.

وفى الفترة من ١٤٥٥ - ١٤٥٧م تعمقت معلومات البرتغاليين فى الداخل بنقل الجهود التى قام بها الرحالة البندقى الفيس كادامستو Cadamost وكان يعمل فى خدمة الأمير هنرى الملاح حيث أوفده فى مهمة لاكتشاف مناجم الذهب فى مملكة مالى وقد نجح كادامستو فى الوصول إلى ساحل غينيا كما نجح فى الحصول على معلومات هامة عن مملكة مالى من القبائل الأفريقية. حقيقة أن كادمستو لم يوفق فى العثور على مناجم الذهب

ولكنه أورد لنا معلومات هامة عن المناطق الداخلية من غرب آفريقيا من ذلك تأكيده على التجارة الصامتة بين المغاربة والافريقيين كما تحدث كثيراً عن الازدهار الذى بلغته مملكة مالى.

وإن كان يلاحظ أن الفترة التى وصل فيها كادامستو كانت فترة حرجة بالنسبة إلى تلك المملكة وعزى ذلك إلى أن امبراطورية سنغى كانت تأخذ طريقها إلى القوة وبدأ ملوكها يتطلعون إلى السيطرة على مملكة مالى.

وقد أوفد ملك البرتغال بعثتين إلى ملك مالى الذى أرسل سفارة إليه بهدف إيجاد تحالف معه ضد سنغى وكان هدف البرتغال يتركز فى التعرف على المناطق الداخلية من غرب أفريقية فضلا عن وقوفهم ضد احتمال نجاح العثمانيين فى شمال إفريقية من الامتداد بنفوذهم إلى السلطنات الإسلامية فى غرب إفريقية، ومما يدل على ذلك أن البرتغاليين كانوا يرقبون الموقف باهتمام بالغ بين مالى وسنغى. فما أن بلغت أسماعهم إنتصارات سنغى ١٤٦٤ ـ ١٤٩٤ على سلاطنة مالى حتى بادروا على الفور بتحويل إتصالاتهم من مالى إلى سنغى ونجحوا بفضل ذلك من الحصول على امتيازات من سلاطنة سنغى الذين حلوا محل ملوك مالى لبناء بعض القواعد والمراكز التجارية على ساحل غرب أفريقية، بل امتدت بعض هذه المراكز فى الداخل حتى بلغت منطقة الإدراء على أن الأثر الذى ترتب على الاستكشافات البرتغالية فى غرب أفريقية يكمن فى ناحيتين بارزتين:

الأولى: نجاح البرتغاليين فى القضاء إلى حد كبير على تجارة القوافل العربية التى كانت تربط بين شمال أفريقية وغربها وتحويل طرق القوافل من الداخل حتى سواحل المحيط الاطلنطى بدلا من سواحل البحر المتوسط وقد ساعد على ذلك تدهور منطقة البحر المتوسط تدهوراً إقتصاديا بسبب تحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء مما ترتب على ذلك إضعاف الروابط العربية لشعوب أفريقية.

والثانية: معاناة شعوب غرب أفريقية معاناة كبيرة نتيجة السيطرة البرتغالية على سواحل غرب أفريقيا وما أعقبها من سيطرة القوى الاستعمارية الأخرى.

غير أن أكبر معاناة تمثلت فى نقل البرتغاليين وغيرهم من الأوروبيين أعداداً ضخمة من الأفريقيين للعمل فى المزارع الأمريكية، وقد استمرت تلك العمليات الاستغلالية قائمة لمدى قرون ثلاثة أدت بدورها إلى إنقاص عدد السكان فضلا عن إضعاف التماسك القبلى والاجتماعى الذى عانت منه الشعوب الأفريقية، وكان لذلك أثر كبير فى تسهيل مهمة السيطرة على مقدرات القارة الأفريقية، واستعمارها حينما قويت الحركة الإمبريالية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

وصول البرتغاليين إلى شرق افريقية:

فى الوقت الذى كانت فيه البعثات الكشفية البرتغالية تحاول استغلال المناطق الساحلية المكتشفة فى غرب إفريقية للوصول إلى الأراضى الظهيرة كانت عمليات الكشف البحرى تواصل نشاطها على طول السواحل الغربية

للقارة الأفريقية حيث يسجل لنا عام ١٤٨٩ وصول بارتلميودياز إلى رأس العواصف الذى لم يستطيع ـ كما هو معروف ـ اجتيازه فعاد إلى البرتغال ولكن الملك ـ فيكتور مانويل ملك البرتغال اختار له اسما آخر هو رأس الرجاء الصالح «كابودى بوا أسبراتسا» تفاؤلا منه بإمكانية التغلب على العواصف والوصول إلى الساحل المقابل.

وفى عام ١٤٩٨ نجح فاسكودى جاما بالفعل فى عبور رأس الرجاء حيث انحرف إلى الشمال محاذيا سواحل القارة الشرقية الجنوبية، وفى مارس من ذلك العام رسافاسكودى جاما أمام موزمبيق، ويقال أن أهالى البلاد قابلوه بمظاهر الود وأكرموه ظناً منهم أن البرتغاليين من المسلمين وقد قدموا من بلاد المغرب وكان يعيش فى موزمبيق عرب إلى جانب الافريقيين، كما كانت السفن العربية تجوب هذه المناطق وكانت مزودة بآلات الاهتداء كالبوصلة وخرائط بحرية وآلات لأخذ زوايا لإرتفاع الشمس.

وما كادت بعثة دى جاما تغادر موزمبيق حتى توترت العلاقات بينها وبين أهالى البلاد حينما علم هؤلاء أن البرتغاليين قوم من النصارى فبرزوا لهم بالعداء واضطر دى جاما أن يقلع بسفنه متجها إلى كلوه ثم ابتعد عن ممبسه خوفا من الإيقاع به ولكنه أرسى قلاعة فى ماليندى الذى أحسن أهلها استقباله بها كما أمده حاكم ماليندى ببعض الأدلاء الماهرين لمساعدته فى الوصول إلى الهند كما طلب إليه أن يمر ببلاده بعد رحلته ببلاد الهند لأن فى عزمه أن يبعث بوفد من قبله إلى ملك البرتغال ليحالفه محالفة

ودية، ومن الواضح بعد ذلك أن البرتغاليين استغلوا الخلاف الذى كان ناشئا بين ماليندى وممبسه ليؤيدوا حاكم ماليندى على منافسه شيخ ممبسة، وبعد أن أقامت السفن البرتغالية فى سواحل الهند زمنا طويلاً عادت إلى الساحل الأفريقى الشرقى من الشمال إلى الجنوب حيث أطلق البرتغاليون المدافع على مدينة مقديشيو وهدموا عدداً كبيرا من المنازل وأغرقوا كثيراً من السفن، ثم رسى البرتغاليون أخيراً فى ماليندى حيث تزودوا بالمؤن اللازمة وفى أبريل ١٤٩٩ وصلوا إلى جزيزة زنجبار.

وقد وضحت أهداف البرتغاليين الاستعمارية فى حرصهم على تأسيس مناطق نفوذ لهم على ساحل شرق أفريقية، بعد أن أدركوا أهمية إتخاذ موانى الشرق الأفريقى كمحطات تمد سفنهم الذاهبة إلى الهند والآتية منها بالعتاد والمؤن.

ومما تجدر الإشارة إليه أن البرتغاليين لم ينجحوا فى توطيد نفوذهم علي ساحل شرق أفريقية دون جهودهم ومصاعب بالغة ويعزو ذلك إلى أن العرب كانوا يعملون على إثارة الأفريقيين ضد مزاحميهم البرتغاليين والعمل على طردهم من المراكز التجارية التى كانوا هم أصحاب التصرف المطلق فيها.

وكانت السيطرة البرتغالية على سواحل شرق أفريقيا والتى استمرت مايقرب من قرنين من الزمان سبباً فى إثارة صراع عنيف بينهم وبين العرب والإفريقيين القاطنين على تلك السواحل، وقبل أن نعرض لمراحل ذلك الصراع قد يكون من المفيد الإشارة إلى الموضوعات التالية:

أولا: الازدهار والرخاء الاقتصادى الذى كان يعيشه العرب والأفريقيين قبل وصول البرتغاليين إلى سواحل شرق أفريقية.

ثانيا: سياسة الاحتكار التى طبقها البرتغاليون وأثرها على أوضاع الساحل الشرقى لأفريقية من ناحية وعلى العلاقات التى كانت تربطه بالجزيرة العربية وسواحل الخليج العربى والهند من ناحية أخرى.

ثالثاً: دور عرب عمان فى التصدى لخطر البرتغاليين والمساعدات التى قدموها لسكان شرق أفريقية بهدف تخليصهم من البرتغاليين وما تخلل ذلك من صراع نشب بين العرب والأفريقيين من ناحية والبرتغاليين من ناحية ثانية تميز بنزعة دينية قوية وتعصب دينى صارخ، ومما لاريب فيه أن البرتغاليين كانوا يعتقدون أنهم سيلقون فيما وراء رأس الرجاء الصالح أقواما هم أقرب شبها إلى من رأوهم على السواحل الغربية فلما شهدوا على السواحل الشرقية نقيض مارأوا على هذه أيقنوا خطا رأيهم وفساد اعتقادهم وقد اتجهت سياسة البرتغاليين فى شرق أفريقية إلى:

(أ) احتلال الساحل وعزله عن الداخل الذى كان يمده بسلعه التجارية والتى كانت تصدر بدورها إلى موانىء الخليج والجزيرة العربية والهند والشرق الأقصى.

(ب) اتجاه البرتغاليين إلى إثارة الحروب والمنازعات الأسرية بين حكام الساحل والهدف من ذلك إضعاف الزعماء والرؤساء لتؤول للبرتغاليين السيطرة فى نهاية الأمر.

(جـ) منع الاتصال بين سكان شرق أفريقيـة وعرب الخليج والجزيرة العربية وحرص البرتغاليين على قطع هذه الصلات واستعدادهم لإبقاء الحكام المحليين سواء كانوا سـواحليين أو غيرهم من الشعوب الأفـريقية تحت سيادتهم إلا أن ـ السكان الأفريقيين والسواحليين كانوا شديدى التعلق بعرب عمان، يؤكد ذلك استمرار تعاونهم معهم ضد السيادة البرتغالية فى شرق إفريقية.

وقد توالت الحملات البرتغالية على ساحل شرق أفريقية حيث أحرز كل من رافاكو ودالميدا نجاحاً كبيـراً فى تأكيد السيطرة البرتغالية على معظم موانى ساحل شـرق أفريقية، وتم للبرتغاليين إخـضاع سلطنة كلوه فى عام ١٥١٢، كما يستدل على ذلك من التاريخ المحلى الخاص بتلك السلطنة.

والجدير بالذكر أن الامـارات والمدن العربية فى ساحل شرق أفـريقية قد سـقطت بسـرعة تحت السـيطرة البرتغـالية. ونظراً لافـتقـار تلك المدن والامارات، للـقوة العسكـرية فقد كـان من الصعب علـيها التـخلص من البرتغاليين إلا بالاستعانة بقوة أخرى.

وقد انصرف البـرتغاليون على أثر استـتباب الأمر لهم إلى اسـتغلال موارد الشرق الأفـريقى والاستحواذ على مـصادر الذهب، ومن أجل ذلك أسس دالميدا مركزين برتغاليين فى سفاله. وكان اضطراب الحكم فى ساحل شرق أفريقية دافعا للكثيرين من الحكام إلى طلب الحماية من البرتغاليين.

والملاحظ أن البرتغاليين ارتكزوا فى شرق أفريقية على القسم الجنوبى من الممتلكات العربية الإسـلامية، بينما اكتفوا فى الشمـال بالاعتماد على

محالفة بعض الحكام أو بعض الحاميات العسكرية التى أنشؤوها أو القلاع والحصون المتبقية التى أقاموها وأجبروا السكان على دفع الجزية لهم والاعتراف بسيادتهم، بينما اكتفوا فى الشمال بالاعتماد على محالفة حكام ماليندى الذين كانوا يتلقون من البرتغاليين مساعدات عسكرية وأما ممبسة فقد تعرضت لأحداث قاسية من الحروب والإعصار والحريق الذى أنزله البرتغاليون بها، وفيما يبدو أنه لا يوجد مكان فى شرق أفريقيا تعرض لمثل ماتعرضت له ممبسه حتى لقد سميت بمدينة الحرب.

جنوب افريقيا:

لم يكن جنوب أفريقيا فى القرن السابع عشر قد ظهر بعد وأن يكون مركزا بحريا لرسو السفن الذاهبة إلى الشرق الأقصى وقد استقر فيه بعض الهولنديون بعد أن أقصوا إلى الخلف السكان الوطنيين من الهولنديون وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية التى تتولى إدارة الأملاك الهولندية فيما وراء البحار تفرض سلطاتها على شريط ساحل ضيق، وقد بنت بعض الحصون من أجل مقاومة كل محاولة للإغارة على هذه المناطق التى تولت الشركة إدارتها إدارة سيئة إذ كان يرأس هذه المستعمرة ضابط ذو رتبة كبيرة يساعده مجلس تنفيذى لتنفيذ قراراته على السكان، سواء كانوا من الوطنيين أو الأوروبيين.

ولم يأت منتصف القرن الثامن عشر حتى كانت أعباء الشركة المالية ثقيلة عليها وكانت إيراداتها لاتكفى بمصاريفها، وزاد من عبئها المنافسة البريطانية والفرنسية وفى الوقت نفسه بلغ من سخط الأوروبيين على

الإدارة هناك أن أعلنوا الثـورة عليهـا وطردوا أعضـاء الحكومة وألفـوا من بينهم مجلساً تولى هذه الإدارة.

وبعد قيام الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ وانضمام هولندا إلى انجلترا فى التحالف الدولى الأول حتى إذا هجمت فـرنسا على هولندا واحتلتها. هرب ملكها إلى انجلترا ومنح الحكومة البريطانية حق احتلال جنوب أفريقيا لحمايته من الأطماع الفرنسية فاحتلها لثمان سنوات ألغت فيها تجارة الرقيق وبعد إنتهاء الحكم الفرنسى فى هولـندا وعودة الحكم الهولندى إليها باعت هولندا مسـتعمـرتها الإفريقيـة إلى انجلترا لقاء سـته ملايين من الجنيـهات وبعدها أخذ البريطانيون فى الهجرة بأعداد كبيرة إلى جنوب أفريقيا.

وفى سنة ١٨٣٤م أصـدر البرلمان البـريطانى قـراراً بتحـريم الرق فى الأمـلاك البريـطانية فكـان لذلك أثر كبـيـر فى جنوب أفـريقـيا إذ تعـود البوير[1]، أن يعتمدوا على الزنوج فى رعى مواشيهم وزراعة اراضيهم ولم يكن أمامهم سوى الهجرة الى أقاليم جديدة ليس فيها أثر للحكم البريطانى فاستقر بعضهم فى الشرق بعد ذلك بتـانال، وأستقر آخرون فيما وراء نهر أورنج وأسمـوها جمهـورية أورنج الحرة، ولكن الجيـش البريطانى[2] تتبع هؤلاء المهاجرين واستولى على هذه الأرض الجديدة وأعلن ضم ناتاتال إلى مستعمـرة الرأس سنة ١٨٤٤ فلم يسع بعض هؤلاء المهاجرين إلا أن يمضوا فى السير نحو الشمال فعبروا نهر الغال فى أرض جديدة أطلقوا عليها أسم جمهورية جنوب أفريقيا وكان ذلك فى سنة ١٨٤٩ .

وفى عام ١٨٥٦ اشترك «كروجز» رئيس قوات جمهورية جنوب أفريقيا مع أتباعه فى إسقاط حكومتى كل من أورنج وجنوب أفريقيا وكون من الحكومتين إتحادا أطلق عليه اسم الترانسفال.

ولم تلبث الظروف السياسية فى بريطانيا أن تغيرت بعد أن أصبح الحكم فيها فى يد طائفة من معارضى التوسع الاستعمارى (دعاة انجلترا الصغرى).

مما أدى إلى فتح المفاوضات بين الإنجليز والبوير انتهت بعقد اتفاق عام ١٨٥٢ اعترفت فيه بريطانيا باستقلال البوير فى الترانسفال وفى عام ١٨٥٤ عقد اتفاق آخر اعترفت فيه انجلترا باستقلال أورنج الحرة (أى تخلت عن نظريتها السابقة فى إخضاع البوير وهكذا ظهرت إلى الوجود جمهورية الترانسفال التى اتخذت من مدينة بريتوريا عاصمة لها وكذلك دولة الأورنج الحرة التى اتخذت من مدينة أورنج عاصمة لها، وقدر للدولتين أن تعيشا مستقلتين لمدة خمسين عاما قبل أن يخضعا من جديد للنفوذ البريطانى.

إلا أن اكتشاف الماس فى كمبرلى الواقعة فى الصحراء غرب دولة أورنج وكذلك الذهب حول جوهانسبرج الترانسفال فتح صفحة جديدة فى تاريخ هذه البلاد فقد أدى ذلك إلى تدفق أفواج من الانجليز من ناتال ومن منطقة الرأس بل ومن انجلترا ذاتها كما تدفقت موجات أوروبية اخرى من جنسيات مختلفة وقد أطلق علي الزحف الجديد اسم (الإندفاع وراء الماس).

ولم تلبث انجلترا أن استندت إلى الهجرات الانجليزية لمد نفوذها فقط إلى الحدود الشمالية للترانسفال بل وإلى روديسيا وقلب القارة الأفريقية كما أقبل بعض الرأسماليين الانجليز وحصلوا على امتيازات باستغلال الذهب وبدأوا بتسليم الحكومة إلى بريطانيا مادام ذلك متفقا مع مصلحتهم ومن الطبيعى أن يعارض البوير ذلك مهما كلفهم الأمر.

وقاد السير سيسيل رودس حركة المناصرين لبريطانيا والمصالح البريطانية وكان السير سيسيل قد ألف شركة جنوب أفريقيا البريطانية التى أستأجرت فى داخل أفريقيا ما عرف فيما بعد باسم روديسيا وأخذت فى استغلالها.

وبذلك أصبحت الممتلكات البريطانية تمتد من الشمال من مستعمرات البوير وجنوبها كما استطاع عن طريق شراء عدد كبير من أسهم شركات التعدين أن يصبح صاحب رأى فيها فقاد فكرة ضم هذه الجمهورية المستقلة إلى بريطانيا وكان يرى كذلك وجوب ضم شرق أفريقيا إلى أملاك بريطانيا، ثم إنشاء سكة حديد تبدأ من القاهرة وتنتهى بمدينة الرأس، فاتصل بالسير أوستن تشامبرن وزير المستعمرات فى بريطانيا واتفق معه على وجوب بدء العمل من أجل إلحاق هذا الجزء بالامبراطورية البريطانية ورأيا أن ذلك لن يكون إلا باستخدام القوة.

الصدام بين البوير والإنجليز:

لم يكن رودس يتصور أن مشاريعه الاستعمارية ستواجه بمعارضة شديدة من جانب الألمان الذين كان يهمهم ربط ممتلكاتهم فى جنوب غرب أفريقيا بممتلكاتهم فى جنوبها الشرقى أو من جانب البوير متمثلة فى

شخص الزعيم بول كروجز الذى ظهر بين البوير فى الترانسفال وكانت له هو الآخر أطماع تشبه أطماع رودس إذ كان كروجز يطمع فى جمهورية للبوير فى جنوب أفريقيا لا تكون تحت رحمة الانجليز أو أية دولة أخرى. وكان يطمع فى مد نفوذه إلى نهر الزمبيزى كما كان يطمع فى إيجاد منفذ على البحر حتى لايكون تحت رحمة الموانىء البريطانية فى سد حاجاته واتجهت أنظار كروجز أيضاً إلى بتشو انالاند باعتبارها مخرجا طبيعيا لفلاحى البوير وكانت بتشو انالاند موضع أطماع رودس أيضا باعتبارها تفتح الطريق أمام الانجليز فى جنوب أفريقيا صوب الشمال حتى لقد كان رودس يسميها (قناة السويس الداخلية ـ فهى مفتاح المستقبل للاستعمار البريطانى).

وفى أكتوبر سنة ١٨٩٩ وجه كروجز إلى البريطانيين إنذاراً بوقف كل ما يقومون به من نشاط يهدد جمهوريته، حتى إذا رفضته الحكومة البريطانية لم يسعه سوى إعلان الحرب وبادر كروجر للهجوم على ناتال، وقدرت انجلترا أنها ستهزم الجمهوريتين سريعاً إلا أنها باءت بالفشل ومنيت جيوشها بهزائم منكرة مما دعاها إلى الاستنجاد بكبار قوادها ومنهم كتشنر وكان قد وصل إلى الخرطوم يقود حملة إستعادة السودان فانقلب ميزان القوى فى صالح البريطانيين واضطر كروجز إلى السفر إلى أوربا يستنجد بدولها ولقيت صرخاته صدى قوياً فى ألمانيا وفرنسا، كما لقيت صداها بين أحرار إنجلترا الذين اتهموا حكومة المحافظين بأنها تسير وراء الرأسماليين البريطانيين ومصالحهم فى جنوب إفريقيا إلا أن الهزائم التى لقيتها قوات البوير وتردد الدول فى بذل المساعدة، اضطرها إلى طلب الصلح فعقدت صلح بريتوريا فى مايو سنة ١٩٠٢ وفقدت فيه الجمهوريتان استقلالهما

وأصبحتا ضمن المستعمرات البريطانية. ولكن بعد هزيمة المحافظين فى انتخاب سنة ١٩٠٦ ومجيء الأحرار الى السلطة منحوا حكومة الترانسفال، ثم حكومة الأورنج مسئولية كافية فى إدارة شئونهما الداخلية واعترف باللغة الهولندية مساوية للغة الإنجليزية ومنذ عام ١٩١٠ وضع دستور جديد أصبحت بمقتضاه المستعمرات الأربع (الرأس تاتال الترانسفال الأورنج) تكون وحدة واحدة يحكمها حاكم واحد وأطلق عليها إتحاد جنوب إفريقيا، وهو طبقا لهذا الدستور دولة مستقلة ذاتياً مع خضوعها للتاج البريطانى وفى عام ١٩٣٤ تقرر أن يكون جنوب إفريقيا دولة مستقلة كاملة السيادة.

وتسير الولايات الأربع المكونة للاتحاد على النظام الفيدرالى الذى يعطى كل ولاية حق إنتخاب مجلس تشريعى محلى يكون من ٢٥ عضواً كلهم منتخبون على أساس الاقتراع السرى العام لمدة ثلاث سنوات، ثم مجلس تنفيذى مكون من أربعة أعضاء معينين بواسطة المجلس التشريعى.

أما السلطة المركزية فتتكون من مجلسين، أحدهما منتخب كله والآخر يسمى بالستانوا ومدته عشر سنوات بعض أعضائه منتخبون وآخرون معينون.

وتعتبر الرانسفال والأورنج أكثر الولايات إمعاناً فى تجاهل حق الوطنيين الذين لم يعطوا حق الانتخاب بعد وتمارس ضدهم سياسة التفرقة العنصرية بصورة كبيرة، أما فى الرأس فقد اشترط أن يكون الناخب مالكا لما قيمته ٧٥ جنيهاً، أو صاحب دخل قيمته ٥٠ جنيهاً سنوياً، كما لم يعط لغير النصارى حق الانتخاب حتى ولو كانوا من البيض أنفسهم. وأما ناتال فقد وضعت هى الاخرى قيوداً على تسجيل أسماء الوطنين والأسيويين.

بتشوانا لاند:

تتكون من جزئين هما محمية بتشوانا لاند ومستعمرة بتشوانا لاند وأرضهما مرتفعة إلى مستوى ٢٣٠٠ قدم فوق سطح البحر وخاصة فى الشرق بالقرب من حدود ناتال وقد قدم إليها الأوربيون من الجنوب فى نهاية القرن الثامن عشر وعمل على اسكشافها مجموعة من المنصربين والمستكشفين وكانت أرضها مسرحاً لغارات قبائل الزولو على سكانها الملقبين بالبتشوانا، ثم كانت هجرة البوير إليها وتجاراتهم المتكررة التى أدت إلى إستنجاد أهلها بالبريطانيين وتحت تأثير رودس أرسل القائد شارلس دارن (لتكليف أراضى البشوانا من البوير) الذى أسقط حكومة جمهورية ستلا فى عام ١٨٨٥ وضمت إلى مستعمرة الرأس ثم فصلت عنها لكى تصبح محمية بريطانية قائمة بذاتها وفى أكتوبر سنة ١٩٦٦ حصلت باسنولاند على إستقلالها باسم ليسوتو. كما استقلت بنشوانا فى سبتمبر سنة ١٤٦٦

إتحاد وسط أفريقيا:

تمكن رودس فى عام ١٨٤٣ من القضاء على مملكة المتيبابلى (فى شمال شرق بنشوانا لاند) وكان يطلق على المنطقة حتى بحيرة نياسا إسم زامبيزيا ثم أطلق عليها منذ عام ١٨٩٥ اسم روديسيا تكريماً لهذا الاستعمارى العتيد «سيسيل رودس» وفى عام ١٨٩٦ بدأت الثورة من جانب أهالى المتيبابلى واشترك رودس بنفسه وقد ارتدى الزى العسكرى مع قوات الرأس فى إخماد مقاومة الأهالى وبناء على تعليمات رودس استخدمت الشركة القوة بمنتهى القسوة مع من وقع فى أيديها من الإفريقيين ولكن الثوار اعتصموا بالجبال وبدأوا حرب عصابات أرهقت الإنجليز وفكر

رودس فى استخدام الحيلة ودرج فكرة التفاهم مع القبائل وعقد إتفاقاً معها إلى أن تمكن من تدعيم صفوفه ثم بدأ الهجوم الشامل حتى تم القضاء على الثورة فى عام ١٨٩٧

وفى عام ١٨٩٨ أعلن قيام مستعمرة روديسيا الجنوبية ولم يلبث الحكم البريطانى أن امتد إلى الشمال أيضاً حيث قامت روديسيا الشمالية، كما أعلنت الحماية البريطانية على الأقاليم التى كانت تعرف باسم (وسط إفريقيا البريطانية أو التى تغير إسمها فى عام ١٩٠٧ إلى نياسالاند).

وأخذت تجول فى خاطر المستعمرين البريطانيين فكرة إدماج روديسيا الشمالية والجنوبية ولكن المستوطنين البيض فى روديسيا الجنوبية كانوا يعارضون الفكرة إلى أن كشف معدن النحاس فى روديسيا الشمالية عام ١٩٢٥ وبدأ سيل المهاجرين البيض يتدفق عليها فارتفعت أصوات المنادين بتكوين إتحاد من روديسيا الشمالية والجنوبية ونياسلاند).

وكان الإفريقيون يعارضون فكرة الاتحاد لأنهم كانوا يرون أنها محاولة لزيادة سيطرة الأقلية البيضاء وتمكينها من خيرات البلاد الإفريقية.

وفى إبريل ١٩٥٢ عقد مؤتمر من حكام المستعمرات الثلاث وحضره وزير المستعمرات البريطانى، وفى هذا المؤتمر تقرر قيام الاتحاد وأصبحت سالسبورى عاصمة الاتحاد وقد هب الإفريقيون يدافعون عن كيانهم وساد التذمر بين صفوفهم ولم تنجح حملات الاعتقال فى إخماد صوت الافريقيين الذين أخذوا يطالبون بحل الاتحاد وإعطاء الافريقيين حق الانتخاب وعلى الرغم من انعقاد مؤتمر لندن سنة ١٩٦٠ وإصداره قرارات بشأن إدخال تعديلات طفيفة على دستور الاتحاد ليسمح بتمثيل الوطنيين

بنسبة أكبر مما هى عليه ولكن الوطنيين أعلنوا رفضهم لهذه التعديلات ولفكرة الاتحاد أصلا ولما لم تجد وسائل الإرهاب والخداع اضطرت إنجلترا لأن تعلن فى آخر ديسمبر سنة ١٩٦٣ حل الاتحاد.

ثم استقلت روديسيا الشمالية تحت اسم زامبيا فى يوليو سنة ١٩٦٤ واستقلت نياسالاند تحت إسم جمهورية مالادى فى أكتوبر ١٩٦٤، واستطاعت الأقلية البيضاء فى روديسيا الجنوبية (٢١٨ ألف من جملة السكان ٠٠٠/ ٥٨٠/د) الوصول للحكم وأعلن قيام حكومة الأقلية البيضاء فى نوفمبر ١٩٦٥ بعد إعلان إستقلالها من جانب واحد وكان هذا يعنى تسلط الأقلية العنصرية على مقاليد الأمور مما أثار الشعور العالمى والإفريقى.

وقد هب المواطنون الافريقيون يكافحون لتحرير روديسيا الجنوبية من سيطرة الأقلية البيضاء حتى تحقق لهم الاستقلال أخيراً فى عام ١٩٨٠

الهامش

(١) البوير هم خليط من الوطنيين والهولنديين فى جنوب أفريقيا.

(٢) أصدر البرلمان البريطانى فى عام ١٨٣٦ قراراً باعتبار المهاجرين من البوير خاضعين للسيادة البريطانية مهما ابتعدوا فى توغلهم وكان لهذا القرار أثره فى مطاردة الجيش البريطانى لهم.

(١) انتخب رودس عام ١٨٨٠ عضوا فى برلمان أفريقيا ووصل فى عام ١٨٩٠ إلى منصب رئيس وزراء مستعمرة الرأس وفى عام ١٨٩٣ بعث بحملة قضت على مملكة الميتالى وهو واضع أساس سياسة التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا وروديسيا.

الفصـــل الرابـــع

الشمال الأفريقي (المغرب العربى)

أولاً : ليبيا

المغرب العربى

استمر الموحدون حتى القرن الثالث عشر الميلادى سادة البلاد فى المغرب العربى وكان ينضم إليهم إقليم الأندلس الذى كان يعد درة غالية فى مكونات العالم الإسلامى، ولم تكن هناك دولة أوربية تباريها في العلم والثقافة والإمكانيات الاقتصادية.

واعتمدت الدول الأوربية على أقاليم المغرب وبعض البلاد العربية الأخرى حينئذ فى الحصول على جزء كبير من احتياجاتها من منتجات إفريقية السوداء والشرق الأقصى، فعمل المغرب العربى حينئذ كوسيط فى توصيل تجارة أفريقيا إلى أوربا، ولا سيما موانى إيطاليا ومراكز التجارة فيها، ولم يضعف من شأنهم أمام الأوربيين سوى المنازعات الداخلية التى أدت إلى الضعف ساعد عليه ازدياد قوة الأوربيين والتفافهم حول المسلمين عن طريق الكشوف الجغرافية التى ظهرت فى القرن الخامس عشر.

ونشبت المعارك الدامية بين المغرب العربى والأوربيين (أسبانيا والبرتغال) وصاحبت تلك المعارك طرد المسلمين من الأندلس وتتبع الفارين منهم حتى المغرب العربى.

وشملت خطة الأسبان والبرتغال تطويق بلدان المغرب، واحتلال الموانى المطلة على البحر المتوسط، أو على الأقل السيطرة على الأقاليم الأفريقية السوداء التى تقع إلى الجنوب من المغرب، وتحويله إلى النصرانية.
وتمكن البرتغاليون من تحقيق بعض هذا المشروع حيث احتلوا سبته سنة ١٤١٦م وبعض موانى المغرب الأقصى، واحتل الأسبان مليلة وطرابلس،

وأخذوا يحاولون تنفيذ وصية الملكة إيزابيلا التى تقضى باحتلال شمال أفريقية وتحويل أهلها للدين النصرانى، فاحتلو المرسى الكبير سنة ١٥٠٥م، وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين، وأسروا عدداً آخر، واحتلو جزيرة صغيرة مواجهة للشاطىء الأفريقى لتكون قاعدة للهجوم على هذ ا الشاطىء كانت هذه الجزيرة هى نواة: دولة الجزائر.

ومع ذلك فقد أضعف المراكز الأسبانية تلك الصحوة الإسلامية التى بدأت تظهر فى القرن السادس عشر، وعنى المسلمون فيه بالبحرية التى باتت توجع بضربها الأسبان فى ضربات سريعة خاطفة على الرغم من استيلائهم (الأسبان) على حجر باديس سنة ١٥٠٨م، والاستيلاء على هران وبجاية سنة ١٥٠٩، وتدميرهم طرابلس سنة ١٥١٠م كما اضطرت مجموعة من الموان إلى دفع الجزية لهم مثل دلس، والجزائر فى الوقت الذى كانت تعانى فيه قيادات مناطق المغرب من مشاكل داخلية على السلطة وانقسام المعسكر الوطنى على نفسه، ومن العدو المهاجم والمتربص بهم فى الخارج، صاحب ذلك كله ازدياد قوة العثمانيين، ولاسيما بعد استيلائهم على دمشق (الشام) سنة ١٥١٦، ودخولهم قاهرة المعز سنة ١٥١٧م(١).

ليبيا

احتلت ليبيا موقعاً استراتيجياً هاماً على حوض البحر الأبيض المتوسط فهى من ناحية تشكل النصف الشرقى للمغرب، كما أنها (وهو الأهم) تشكل حلقة وصل بين المغرب والمشرق العربى.

وليبيا بطبيعتها الجغرافية تنقسم إلى: مناطق ساحلية، وجبلية وشبه صحراوية وصحراوية، إلا أن مناخها هو مناخ البحر الأبيض المتوسط.

وتنقسم البلاد على ثلاث وحدات إدارية رئيسية هى: أولا: برقة وتقع فى الشرق ومركزها بنغازى، ثانيا: طرابلس فى الشمال الغربى ومركزها طرابلس، ثالثاً: خزان فى الجنوب الغربى ومركزها مرزق.

وكان اسم ليبيا قديماً فى عصر الإغريق، والرومان، إلا أنه أهمل قروناً طويلة لاستخدام أسماء البلدان بمجتمعاتها المحلية، وبعد الحرب العالمية الثانية أعيد استخدام الاسم مرة ثانية[٢]، وأهل ليبيا مزيج من عناصر عدة بربر، وفراعنة، وفينيقيين، وإغريق ورومان، وعرب.

سبق وصول العثمانيين إلى منطقة المغرب العربى ومن بينها ليبيا محاولة الحفصيين[٣] مد نفوذهم إلى طرابلس، كما فكر وافى الوصول إلى برقة، ونستطيع أن نعد ذلك عاملاً وسبباً فى ضعف القوى المحلية التى تصارعت فيما بينهما فى الوقت الذى أخذت فيه القوى الأوربية تتسابق فى الأخذ بأسباب القوة والسيطرة.

وقد أشرنا إلى قيام الأسبان بتدمير ميناء طرابلس سنة ١٥١٠م، وتلك أخطار باتت تهدد سواحل وبلاد المغرب العربى الأمر الذى أدى إلى محاولة أمراء طرابلس الاستعانة بأمراء فاس ضد هذا الخطر المحدق بهم ولاسيما من أسبانيا، ولكن هذه الاتصالات بين طرابلس وفاس قد أثارت

حفيظة الحفصيين فى تونس الذين كانت لهم على ما يبدو أطماع أو مصالح فى طرابلس، بالإضافة إلى غضب قيادات شرقى الجزائر من هذا التقارب بين فاس وطرابلس، وهذا هو الاستنزاف بعينه للقوى المحلية المتصارعة على السلطة فى المغرب العربى (٤).

أدى هذا التصارع المحلى إلى وقوع طرابلس بالفعل فى يد الأسبان الذين استولوا على المدينة سنة ١٥١٥م فى عهد الإمبراطور شارل الخامس، واتخذوها مركزاً أو جيباً نصرانياً بجانب الجيوب الأخرى التى سيطروا عليها على امتداد ساحل المغرب العربى، واستمر الحكم الأسبانى لطرابلس حوالى عشرين عاماً، بعدها وفى سنة ١٥٣٥م لم يستطع شارل الخامس الاحتفاظ بطرابلس فقد كان مثقلاً بالمشكلات والأخطار الكبرى من بينها مشكلاته مع السلطان سليمان القانون العثمانى، ومشكلة الإصلاح الدينى (مارتن لوثر، وكلفن، وزونجلى) فى بلاده ومشكلة الاتحاد السويسرى الذى يطلب الانفصال ويلح فيه، وحربه الصليبية مع سكان الجزائر وتونس. . . . الخ.

من أجل ذلك شارل الخامس حكم طرابلس ليتولاها فرسان القديس يوحنا الذين نقلوا نشاطهم النصرانى إلى جزيرة رودس بعد طردهم من بلاد الشام ١٢٩١هـ، وطردهم أيضاً من رودس إلى مالطة(٥).

وقد اهتبل الفرسان الفرصة عندما حصلوا على الميناء والمدينة بسهولة وجعلوامنها وكراً ينطلقون منه لضرب السفن الإسلامية فى عرض البحر.

لم ييأسأهالى طرابلس رغم فشل مقاومتهم للإحتلال الصليبى فى العهد الأسبانى أو إبان سيطرة فرسان القديس يوحنا، ولذلك فقد قرروا الاستنجاد بالسلطان العثمانى سليمان الذى استقبل وفداً من أهل تاجوراء

يطلبون منه تحرير بلادهم من النصارى فى مقابل إعلان ولائهم للدولة العثمانية.

وبالفعل بادر السلطان بالاستجابة، وأرسل مراد أغا مع حملة صغيرة إلى ميناء طرابلس، ولكنه فشل فى البداية فى تحريرها، فظلت الحملة فى تاجوراء مقيمة تحصينات عسكرية وتجهيز الطريق بين تاجوراء وطرابلس، وطلب مراد من الباب العالى إرسال حملة برية وبحرية لمساعدته على إنجاز مهمته، فأرسل سليمان حملة بحرية كبيرة بقيادة الصدر الأعظم (قوجه سنان باشا).

استطاعت الحملة ضرب استحكامات الصليبيين على المدينة ودخلوها فى سنة ١٥٥١م، وساعده على ذلك أحد القادة (دراجوت باشا) قائد الأسطول العثمانى الذى كان على مقربة من الجزائر حينئذ، وكان أول وال عثمانى على ولاية طرابلس هو سنان باشا، وخلفه دراجوت باشا حيث اشترك الإثنان فى قطع دابر الصليبيين من إقليم طرابلس، وامتداد النفوذ والسيطرة العثمانية على أغلب السواحل الليبية[٦].

عصر الأسرة القره مانلية:

وفى الفترة الواقعة بين منتصف القرن السادس عشر، وأوائل القرن الثامن عشر ازداد عدد فيالق الانكشارية (لمنع الاعتداءات النصرانية) الذين تصاهروا مع عرب الولاية وتزوجوا من نسائهم، وامتلكوا الأراضى والأشجار والنخيل تلك الزيجات المختلطة التى أنتجت طوائف عرفت بـ القولوغلية، وهى خليط بين العرب والانكشارية، واستطاع أحدهم وهو أحمد القرمانلى أن ينفرد بالسلطة ويعلن نفسه حاكماً على ولاية طرابلس سنة ١٧١١م عندما انتهز فرصة هروب خليل باشا والى طرابلس ولجوئه إلى مصر بعد ثورة أهالى ولايته.

هذا على الرغم من أن الدولة العثمانية كانت تعمد إلى تغيير الولاة سريعاً فتولى أمر طرابلس العديد من الولاة مثل يحيى باشا ٩٧١هـ، مصطفى باشا ٩٧٣هـ، ومحمد باشا التركى ٩٨٢هـ، وغيرهم، وقد حاولت الدولة العثمانية القضاء على أحمد القرمانلى إلا أنها فشلت فى ذلك واضطرت إلى تعيينه والياً على طرابلس ويكون حكمه فيها وراثياً فى أسرته كما حصل على لقب الباشوية، ومدته بمجموعة من المدافع (٧٠ مدفعاً) حملتهم سفينتان وعليهما مجموعة كاملة من الرجال لحماية الولاية.

استمرت أسرة القرمانلى فى حكم طرابلس حوالى مائة وأربعة وعشرين عاماً بداية من سنة ١٧١١م إلى سنة ١٨٣٥م، وبعدها عادت الولاية للدولة العثمانية مرة ثانية حيث استمرت تحكمها حتى سنة ١٩١١م(٧).

وفي عهد أسرة القرة مانلين كانت طرابلس تعد مثلها مثل الدول المستقلة إذ أنهم قد دخلوا فى حرب مع بعض الدول الأوربية، وعقدوا العديد من المعاهدات والاتفاقات دون الاستئذان من حكومة الدولة العثمانية، وبالغوا فى إظهار استقلالهم بأن اتخذ البعض منهم لقب أمير المؤمنين، فى الوقت الذى أطاعهم فيه أهل طرابلس وما حولها طاعة عمياء لما كان لهؤلاء القادة من نفوذ كبير كما كان جنود الانكشارية وقادتهم فى موقف ضعف، فلم يحركوا ساكناً فى هذا المجال.

واشتهر عند القادة القرمانلين الشدة والعنف، والاستئثار بخيرات البلد دون أن يهتموا بإصلاحات وإعمار البلاد أو بتقوية العسكرية والبحرية الموجودة فى طرابلس ما عدا بعض المحاولات التى قام بها محمد بن مؤسس الأسرة وبعض خلفائه.

وفى عهد مؤسس هذه الأسرة (أحمد القره مانلى) ظهرت ثورات عديدة تمكن من إخمادها لعل أشهرها تلك الثورة التى تزعمها رجل مغربى (غلب بن عبد الله عبد رب النبى) الذى عرف بـ (أبو قبله)، واتخذ من مناطق الجبل وكراً له مـدعياً المهدية فبايعه كثير من الناس وأثار الأهالى حتى زحف عليهم أحمد باشا القره مانلى وأخمد فتنتهم.

وفى عهد ابنه (محمد باشا) كانت هناك محاولة لتجديد الأسطول وظهر فى عهده مجاهدون استطاعوا إدخال الرعب فى قلوب الأوروبيين حتى بات الأخيرون يخشون أعمالهم، واضطرت فرنسا فى عهده كذلك أن تبرم اتفاقية مع الطرابلسيين إثر تمكن المجاهدين من أسر مجموعة من السفن الفرنسية سنة ١٧٢٨م.

وحصلت انجلترا فى هذه الفترة على معاهدة أخرى مع محمد باشا استطاع أن يعقدها هى وسابقتها دون مشاورة الباب العالى أو انتظار الحصول على موافقة منه(٨).

يوسف باشا القره مانلى

وممن أذاقوا الأوروبيين مرارة دفع الجزية الوالى يوسف باشا الذى كان عل يدرجة كبيرة من الذكاء والشجاعة والعنف فى وقت واحد، حيث تمكن من الحصول علي تصديق من الدولة العثمانية لولايته، ونال منها عل يرتبة: روم أيلى بكلربكى وأجرى فى بلاطه طقوساً لا تقوم إلا للملوك، وأدخل على أسطوله إصلاحات عديدة، كما أنه كان على صلة وثيقة بالفرنسيين ولاسيما فى عهد نابليون بونابرت لدرجة أن يوسف باشا قد استنفر أسطوله وجعله على أهبة الاستعداد لحماية الأسطول الفرنسى وإنقاذه من تضييق الإنجليز الخناق عليه ومحاصرته إبان الحملة الفرنسية على مصر.

ومن البلاد الأوربيـة التى أذعنت ليوسف باشا ودفـعت الجزية له السويد عندما فرض على حكومـتها سنة ١٢١٣هـ أن تدفع له مائة ألف فرنك كهبة، وثمانين ألـفاً من الفرنكات كجزية سنوية ، رغم أن القنصل السويدى امتنع عن قبول دفع بلاده لهذه الأموال، مما حدا بيوسف باشا أن يهاجم المصالح السويدية وعلى رأسهـا السفن التى حصل منها على غنائم كثيرة، وانتهت الأزمة بتدخل نابليـون، وجعل الهبة ثمانين ألفا، والجزية ثمانية آلاف سنوية، وحينئذ وافق يوسف على فك أسر السفن.

كما استطاع يـوسف مصادرة مجموعة من السـفن الأمريكية سنة ١٢١٧هـ الأمر الذى دفع بالأسطول الأمريكى لمحـاصرة طرابلس عشرين يوماً، ولم ينقـذ الأمر سوى تدخل والى الجزائر حـسن باشا، والقنصل الإنجليزى وينجتون (صـديق يوسف باشا) اللذان توسطا فى إبرام الصلح مع الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٢٢٠هـ.

ويذكر فى هذا الصدد: أن ما دفعته الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكـية فى السنوات الثـلاث الأولى من حكم يوسف باشا قـد بلغ ثلاثمائة وثلاثين ألف قرش اضطرت إلى دفـعه كل من: الولايات المتحدة الأمريكية، انجلترا، وفرنســا، والدانمرك، والسويد، والبرتغال، وهولندا، وسردينية.

إلا أن الأمر قد اختلف بـعد أن تخلصت أوربا من الرعب الفرنسى أيام نابليون وتنفست الصعداء حـينئذ عقدت الدول الكبرى سنة ١٨١٩م اتفاقاً فيما بينها لحـماية دولهم من المجاهدين فى البحر الأبيض المتوسط، وتم إبلاغ الاتفـاق إلى يوسف باشا مما أدى إلى امـتناع الدول عن دفع الجزية، وتدهور أحوال ولاية طرابلس.

وتجدر الإشارة إلــى أن العديد من المقاطعات الإيطاليــة كانت هى الأخرى تدفع الجزية ليوسف باشا مثل: سردينيا، وحكومة البابا، وحكومة نابولى وغيرها(٩).

واحتفظ يوسف باشــا بعلاقات حميــمة مع دولة بورنو، وكانم، وبعض دول غرب وشمال غرب أفريفقيا الأخرى حتى أن البعض من هذه الدول كان يستنجد بدولة يوسف باشا فيجيبه إلى طلبه بحملات عسكرية جعلت له مكاناً عزيزاً فى هذه الدول الإفريقية(١٠).

ومع ذلك فقد أدى تكــالب الدول الأوربية واتفاقهم على مــجابهة ووقف عمليات المجاهدين ضدهم فى البحر الابيض المتوسط، ووقف ومنع ماكانوا يدفعونه واســتقرار رأيهم فى مؤتمر إكس لاشايل سنة ١٨١٦م أن ساءت أحــوال طرابلس وتدهورت اقتصــادياً مما اضطر يوسف باشا إلى فرض ضــرائب وأموال علي الأهالى الذين ثاروا علــيه، واضطروه إلى التنازل عن الولاية لابنه على بك قره مانلى الذى جــاءه فرمان توليته من الدولة العثمانية فى ربيع الآخر سنة ١٨٣٣م (١١).

وبذلك أصبحت ولاية طرابلس فى موقف حرج داخلياً وخارجياً، الأمر الذى شجع الدولة العــثمانية لإنهاء حكم هذه الأســرة وإعادة طرابلس إلى حكمها وسيادتها المطلقة.

وبادرت الدولة العثمــانية فى أوائل سنة ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م بإرسال حملة عسكرية تحملها اثنتان وعشرون سفينة يقودها الفريق مصطفى نجيب باشا بحجة حفظ الأمن فى البلاد، وبعد شهر من وصولها واستقرارها دعا القائد العثمــانى الوالى إلى سفينته وألقى القبض عليــه، وأخرج فرمان الدولة أمام الأعيان وتلاه عليهم بولايته عليهم وحفظ الأمن والاستقرار فى

ولاية طرابلس[١٢] ، وبذلك طويت صفحة هذه الأسرة التى انتقلت من على مسرح التاريخ إلى كتبه.

ومما يجدر ذكره ونحن نختتم حديثنا عن الأسرة القره مانلية هى أن اتجاه أغلب قادتها للتصرف فى شؤون الولاية كمستقلين لم يقطع الصلات الروحية بينهم وبين دولة الخلافة (العثمانية) بل كانت تلك الصلات موجودة بشكل وبآخر يمكن أن ندلل عليه بما حدث فى ثورة المورة عندما تم إسناد أمرها إلى مصر وأرسلت الدولة العثمانية خسروا باشا (والى مصر السابق الذى تولى منصب قبودان باشا الأسطول العثمانى) إلى كل من الجزائر وتونس وليبيا لجمع السفن الحربية وبالفعل شارك القره مانليون فى هذه الحملة ببعض سفنهم، التى عاونت الأسطول المصرى العثمانى، ولقيت المصير نفسه الذى لقية الأسطول المصرى فى موقعة نافارين البحرية [١٣].

الحكم العثمانى الثانى لليبيا (١٨٣٥-١٩١١)م:

عاد الحكم العثمانى إلى ليبيا فى وقت زادت فيه الأطماع الاستعمارية وضوحاً ولاسيما بعد استيلاء فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠م وبريطانيا على عدن سنة ١٨٣٩م، وتكالب الأمم على مصر (محمد على) فى مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠م، وما تلاه من احتلال فرنسا لتونس سنة ١٨٨١م، وبريطانيا لمصر سنة ١٨٨٢م ولذا فقد وضح أمام الليبيين الخطر الذى أصبح ماثلاً أمام أعينهم من جانب الأوربيين، وأصبح الليبيون يشاهدون الولايات العربية تتساقط الواحدة تلو الأخرى فى قبضة المستعمرين، فكان ذلك داعياً من دواعى الالتفاف والتمسك بالروابط الدينية والسياسية مع الدولة العثمانية [١٤].

ومن ناحية أخرى كـان إقليم طرابلس وبرقة (ليبيا) فقـيراً من ناحية الموارد الطبيـعية اللهم إلا بعض العيـون التى تقوم عليها زراعـات بسيطة، ورغـم وجود تجـارة رابحة فى السـباق عـبر الإقليم عن طريق القـوافل بين إفريقيـة السوداء فى الجنوب والموانى الطرابلسية على البـحر المتوسط إلا أن استيلاء الأوربيين على مخارج القارة من ناحية الغرب، وفى خليج غانة قد أدى إلى ضعف وانخفاض هذه التجارة.

ومن الناحية الإدارية كـانت الولاية قد قسمت إلى قسـمين أولهما : ولاية طرابلس، وبها مـقر الوالى وثانيها : مـتصرفية بنغـازى التى تخضع لمتصرف يُعد نائباً للوالى، ويطبق فى الولاية نظام القضاء العثمانى، بيد أن الامتيازات الأجنبيـة قد كان لها باع ونفوذ كبير تسبب فى فـوضى مستمرة فى هذه الولاية وسـاعدت تـلك الامتـيازات على سـيطرة الأجـانب على المصالح الرئيسية فى البلاد.

فى الوقت الذى كان فيه العثمانيون يهتمون بدرجة كبيرة بمسألة جمع الضـرائب مما ضيق على الأهـالى فى معـيشـتهم عـلى الرغم من تمسكهم بسـياسة عـبد الحـميـد الإسلامـية التى انتـهجـها لاعتـزازهم بإسلامـهم وعروبتهم، وسـاعد على وجود عدد من الطرق الصوفـية لكل منهم أتباع وأشهر هذه الطرق هى الطريقة السنوسيـة التى ظهرت فى واحة جغبوب، وانتشرت فى برقة حتى وصلت إلى أفريقية السوداء[١٥].

وتولى أمر ليبيا من الولاة عدد كبير بلغ ثلاثة وثلاثين والياً فى الفترة الواقعـة بين ١٨٣٥ـ١٩١١م دون أن يتمكن المصلـحون منهم من تصـحيح أوضاع الولاية فقد كانت فتـرة تولى كل منهم قصيرة لا يتمكن المصلحون منهم من تصحـيح أوضاع الولاية فقـد كانت سمـة واضحة طوال العـصر العثمانى الثانى يضاف إلى ذلك حالات الجدب، وقلة المياه للشرب وانتشار الأمراض الفتاكة[١٦].

ومع ذلك كان هناك بعض الولاة الذين سجلوا صفحات بيضاء طيبة فى تلك الفترة نذكر منهم :-

١ - الوزير محمود نديم باشا :

لعله من أبرز الولاة العثمانيين حينئـذ، ومع عدم استطالة فترة ولايته التى لم تتعد ست سنوات فيما بين سنتى ١٨٦٠، ١٨٦٦م إلا أن عهده قد حفل بمجموعة من الاصلاحات فى مجالات الحياة المختلفة بليبيا.

فقد ازدهرت الزراعة فى عهده بغرسه لـلأشجار والنخيل، وتشجيعه الأهالى على العناية بها، ويرجع إلى نديم باشا فضل اهتمامه بتأسيس أول مطبعة حكومية بقصر الحكومة فى ليـبيا، وصدور أول جريدة رسمية كانت تسمى باسم (طرابلس غـرب)، وأنشأ محاكم الجنايات والحقـوق والتجارة بعـد أن تم تحويل إيالة طرابلس الغـرب فى عهـده وفى سنة ١٢٨٢هـ إلى ولاية[١٧].

٢ - حافظ محمد باشا :

تولى أمر الولاية فى سنة ١٩٠٠م واسـتمر فـيها عامين فـقط حيث تركها فـى سنة ١٩٠٢م، وكانت له أياد بيضاء فى حكم هذه البـلاد حيث عـمل الرجل بلا كلل أو ملل، فـتم إنجـاز فى عـهـده خاص بـتسـجيل الأملاك، وإحصاء للسـكان، والقيودات العقارية لنشر الاسـتقرار والعدالة بين الناس، وتقـرر فى عهده أيضـاً إعانات ومسـاعدات وبعض الخـدمات العامة، وأنشأ بنـكاً زراعياً، وألغيت امتيازات أصـحاب النفوذ والغنى التى كانت تعفـيهم من الضرائب، كمـا ألغى امتيازات طبقـة (طائفة) (قول أو غلى)، وأنشا مدرسة الصنايع، وعبّـد الطريق العام، ورصف طريق البحر بالحجارة المصقولة، وأول من أدخل الخدمات البلدية فى ليبيا.

وكانت له أياد بيضاء فى مجال التعليم حيث أقام مدرسة للمعلمين، وحول مدرسة البنات الصغيرة إلى مؤسسة كبرى، وانطلق يفتتح المدارس فى ملحقات الولاية واستقدم الخبراء.

ويذكر أنه فى عهده كانت هناك محاولات إيطالية سنة ١٩٠١، ١٩٠٢ - كما سعى - لمد أطماعها إلى ليبيا إلا أن حافظ باشا قد تمكن من اتخاذ تدبيرات حكيمة أعادت الأسطول الإيطالى دون أن يمكنه من الاستيلاء على البلاد(١٨).

السنوسية ودورها فى ليبيا:

شهد القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى - كما قدمنا - مجموعة من الدعوات الإصلاحية فى أفريقيا وآسيا من بينهما: دعوة ابن عبد الوهاب فى شبه الجزيرة العربية، والدعوة المهدية فى السودان، وقد سبق الحديث عنهما، وفى ليبيا ظهرت الدعوة السنوسية التى آثرنا أن نفرد لها الدراسة الموجزة التالية :-

ولد محمد بن على السنوسى فى ١٢ من ربيع الأول سنة ١٢٠٢هـ / ١٧٨٧م قريباً من مدينة مستغانم بالجزائر، وتربى فى بيت علم ومعرفة فنهل منه وتعلم فى جامع القرويين بفاس لمدة سبع سنوات (١٨٢٢-١٨٢٩)م، وعاد للجزائر فى بداية الاستعمار الفرنسى لها، وانتقل منها إلى القاهرة، حيث أقام بها فترة ينهل من علوم الأزهر الشريف (يُعلم ويتعلم)، وعاد بعد ذلك إلى الحجاز بعد ذلك إلى الحجاز بعد أن اختلف مع بعض علماء الأزهر الذين وجدوا فيه جرأة بسببها ناصبوه العداء.

وتعددت رحلات محمد بن على السنوسى التى عمد فيها إلى إقامة الزوايا ونشر دعوته الإصلاحية فى الحجاز والشمال الأفريقى كله، والشام

https://alboraj.blogspot.com

ومصر وفى عودته سنة ١٨٤١ علم أن الفرنسيين ينوون القبض عليه على الحدود التونسية الجزائرية، فعاد إلى الجبل الأخضر بصنجقية برقة التابعة لطرابلس.

حيث كان قد أوعز إلى أتباعه بتأسيس الزاوية البيضاء التى تم تأسيسها فى أواخر سنة ١٨٤٢م، وصارت زاوية السنوسية الرئيسية فى برقة بعيداً عن النفوذ المباشر للأتراك العثمانيين الذين كان يتركز نفوذهم على الساحل أكثر وهى أيضاً تقع على طريق القوافل الطويل.

وفى سنة ١٨٤٦م وبعد أن قضى فى الجبل الأخضر عدة سنوات غادر الزاوية البيضاء إلى الحجاز فأمضى فيه عدة سنوات أخرى (٨ سنوات) عاد بعدها سنة ١٨٥٦م حيث اتخذ من منطقة جغبوب مركزاً له، حيث تمثل له بُعداً أكثر عن أن تطوله يد العثمانيين، ولذلك انتشرت دعوة السنوسية، وأصبح لها مجموعة كبيرة من الزوايا قدرت بثلاثمائة زاوية خصصت لتلقى العلم وإعداد الدارسين لنشر تعاليم السنوسية فى المناطق المختلفة.

وكانت الجغبوب مجرد واحة غير مأهولة ومأوى لقطاع الطرق حتى تغير حالها تماماً بعد أن قصدها السنوسي وأقام فيها الزاوية السنوسية حيث أصبحت منطقة عامرة، ودبت فيها الحياة والنشاط، وتعاون الإخوان فى العناية بزراعة الأرض حول الزاوية، وتوفير المياه اللازمة، ولكل فرد عمل محدد يقوم به فى أيام معينة بنظام وترتيب وأثرة، وأصبحت موارد الزاوية من نواحى عدة : عن طريق التجارة والزراعة والرعى والهبات والزكاة الشرعية وما ترسله الزوايا من فوائض[١٩].

وللسنوسى مؤلفات عديدة تشرح تعاليمه المستمدة من الكتاب والسنة، وقبل وفاة المؤسس محمد بن على نجد أنه قد أعد العدة لخلافة ابنه المهدى دعوته وطريقته حيث توفى محمد (المؤسس) فى ٧ من سبتمبر سنة ١٨٥٩م ودفن بالجغبوب.

وفى عهد ابنه المهدى بلغت الدعوة مداها، وانتقل من جغبوب إلى الكفرة حيث كان الاتجاه السائد هو الابتعاد عن السياسة حتى لايكون هناك صدام بالقوى المتصارعة عليها، إلا أنه فيما يبدو قد كانت لهم أنشطة فى مساندة الحركات الوطنية التى قامت فى الجزائر وتونس، بل يذهب البعض إلى وجود أتباع لهم فى الشمال الأفريقى كله كانوا كعملاء للسنوسية فى المصالح الحكومية فى كل المدن، حتى بالغ البعض فى ذكر أن السنوسيين كانوا وراء حوادث الاغتيالات التى حدثت للأوروبيين من منُصرين ومستكشفين فى كثير من بلاد إفريقيا[٢٠].

أما علاقة السنوسيين بالدولة العثمانية فقد كانت جيدة حيث وفرت السنوسية عليهم نفقات العصابات وقطاع الطرق بعد ما أصلحت السنوسية من شأنهم بفضل الله.

وعلى كل فقد انتشرت السنوسية وزواياها فى ليبيا ومصر والسودان وشبه الجزيرة العربية فى شكل ومنهج محكم ومترابط فيما بينهما، وفى الوقت الذى توفى فيه السيد المهدى سنة ١٩٠٢م كانت السنوسية قد بلغت مبلغاً عظيماً فى الانتشار[٢١].

وعند وفاة المهدى كان ابنه محمد إدريس (الذى صار ملكاً فى سنة ١٩١٨) صغيراً فتولى السيد أحمد الشريف فترة ست عشرة سنة قضاها فى كفاح وجهاد مستمر ضد الفرنسيين مشتركاً مع الممالك الإسلامية فى غرب

أفريقيا وغيرهم فى هذا الكفاح، كما كانت هناك علاقات حميمة بين السنوسية، وبين حاكم واداى فى السودان، وساءت العلاقات أكثر عندما احتل الفرنسيون إحدى الزوايا التابعة للسنوسيين فى (بيو علالى) بمنطقة واداى بالسودان فأعلن المهدى الجهاد ضدهم، وبعد وفاته استمر الشريف فى القتال ضد الفرنسيين مما كبدهم خسائر كبيرة فى الجنود والقادة.

وفى سنة ١٩١١م اضطر السنوسيون إلى ترك الجنود للفرنسيين ليتمكنوا من مواجهة العدو الأخطر وهم الإيطاليون الذين جاءوا بأطماعهم إلى ليبيا(٢٢).

الأطماع الإيطالية واحتلال ليبيا:

شهدت فترة الحكم العثمانى الثانى لليبيا منذ سنة ١٨٣٥م، أحداثاً وأطماعاً أوروبية جاءت من جبهات عديدة أولها: فرنسا التى أثير حولها الشكوك فى أن لها أطماعاً فى ليبيا، ولا سيما بعد أن استولت على تونس سنة ١٨٣٠م، ونظراً لكثرة الاتهامات التى وجهت للفرنسيين فقد اضطر وزير خارجية فرنسا أن يعلن على الملأ فى يولية سنة ١٨٨١م أن حكومته لا تفكر مطلقاً فى احتلال طرابلس، وكل ما فى الأمر هو رغبة فرنسا فى منع الروح العدائية التى تظهر بين الحين والآخر من طرابلس تجاه فرنسا.

هذا من جهة ومن جهة أخرى ظهرت على السطح فى أواخر القرن التاسع عشر مخاوف من أطماع ألمانية وإيطالية بعد أن توحدت بلدان كل دولة منها، وتخلصت من مشكلاتها الداخلية، وباتت كل منهما أيضاً ترنو ببصرها تجاه مجال الاستعمار وتبحث لنفسها عن مكان تحت الشمس.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد (فرنسا - ألمانيا - إيطاليا) بل كانت هناك بوادر أمريكية فى الميدان نفسه، وفى هذا الصراع سعى القنصل

الأمريكى فى طرابلس فيدال (Fedal) سنة ١٨٧٣م للحصول على ميناء بحرى حربى فى طرابلس ليكون قاعدة للأسطول الأمريكى فى البحر المتوسط، وكان المكان المميز الذى وقع عليه الاختيار هو ميناء طبرق، إلا أن الصراعات الدولية فى هذا الوقت قد وقفت حائلاً ضد تنفيذ هذا المشروع الأمريكى[٢٣].

أحوال ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالى:

كانت الأوضاع فى ليبيا تسوء باستمرار - ما عدا بعض الومضات التى أشرنا إليها من قبل - لقلة المدارس، وتمكن الفقر بسبب ضعف التجارة والزراعة وانعدام الصناعة، وانتشار الأمراض التى كان يأتى بعضها فتاكاً بالشعب الليبى، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد اضطر الأتراك إلى سحب جيوشهم وأسلحتهم من القطر الليبى على وعد بأن ترسل غيرهم دون أن تفعل ولم يبق فى ليبيا سوى ألفى جندى بعد أن كان تعداد الحامية حوالى عشرين ألفا[٢٤].

كان سحب الحاميات العثمانية بسبب ظروف تركيا مدعاة لظهور الثوار من الأهالى الذين أصبح عليهم عبء مواجهة المستعمرين الذين يتربصون بالبلاد الليبية ولاسيما أن الخطر الماثل آمامهم لم يكن خافياً على أحد بعد أن التهمت الأطماع الاستعمارية جيران ليبيا سواء فى منطقة الشمال الأفريقى - الجزائر، وتونس، وفى الشرق مصر والسودان وكذلك فى آسيا الشام والعراق وغيرها، ولذلك أحس الجميع أن هؤلاء المستعمرين باتوا فى طريقهم إلى ليبيا.

وكان على السنوسيين كمجاهدين انتشروا فى برقة وكل أنحاء ليبيا بل وخارج حدودها أن يواجهوا الخطر الاستعمارى ويتصدون له لدعوة داعى الجهاد فى الزود عن بلادهم.

وقد مهد الإيطاليون لأطماعهم في ليبيا باتخاذ مجموعة من الإجراءات خاصة بعد أن توحدت كل مقاطعاتها سنة ١٨٧١م.

وفي سنة ١٨٨١م أصيبت إيطاليا بخيبة أمل نتيجة استباق فرنسا لها واحتلالها تونس التي كانت إيطاليا تطمع في الإستيلاء عليها، واعتبرت ذلك ضربة قاسية لها ولذلك فقد اتجهت إيطاليا إلى شرق أفريقيا، واستولت على مستعمرة إريتريا والصومال والإيطالي، كما اتجهت أطماعها نحو أثيوبيا ولكنها لقيت هزيمة منكرة في موقعة عدوة (مارس ١٨٩٦)[٢٥]م، وربما يكون ذلك سبباً في تأخر إيطاليا حتى سنة ١٩١١م في احتلالها للقطر الليبي.

إلا أن إيطاليا باتت تخطط وتتخذ بعض الإجراءات تمهيداً لاحتلالهم المرتقب كان من بين هذه الإجراءات:

١ - محاولة امتلاك الأراضي في منطقة سرت عن طريق رجل يدعى محمد المغراوي في سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م.

٢ - سعت إيطاليا في سنتي ١٩٠١, ١٩٠٢ للحصول على موافقة ضمنية من انجلترا وفرنسا، وبالفعل حصلت عليها[٢٦].

٣ - تلي ذلك تمهيد آخر حيث اشترت أرضاً شاسعة داخل الولاية، وأرسلت أعداداً كبيرة من المهاجرين الإيطاليين، وأنشأت العديد من المدارس، ومكاتب البريد في المناطق الرئيسية والهامة في الولاية، كما عملت إيطاليا على زرع بذور الشقاق بين الأهالي، والأطراف المختلفة متزرعة بسبل عديدة على رأسها عمل إحصاء للسكان، وتسجيل الأملاك[٢٧].

٤ ـ اتخذ الإيطاليون من مكاتب البريد التى أنشأوها منتديات لاجتماع السياسيين الإيطاليين للاتفاق على السبل الكفيلة وتدبيرها لتسهيل وتعجيل عملية الاحتلال المرتقبة.

٥ ـ أسس الإيطاليون فى سنة ١٩٠٥م فرعا لبنك روما فى طرابلس رغم معارضة الوالى رجب باشا لمعرفته بأن المشروعات الاقتصادية هذه تحوى فى داخلها أهدافاً سياسية واستعمارية، لكن حكومة الآستانة كانت ترى عدم التشدد فى مثل هذه الأمور تحسباً لأية قلاقل سياسية، ولذلك فقد أنشئ البنك رغماً عنه.

٦ ـ وافقت الحكومة العثمانية على إرسال بعثة عسكرية إيطالية مكونة من مجموعة من الضباط بحجة أنها بعثة علمية تبحث عن آثار، فى الوقت الذى كان فيه عمل البعثة وضع الخرائط العسكرية لجميع المناطق الرئيسية التى مروا بها لتسهيل عملية الاحتلال.

٧ ـ أنشأ الإيطاليون عدداً كبيراً من المدارس التى تخرج منها متعلمون موالون للايطاليين كان من بينهم يهود وغيرهم، وأصبح عدد كبير منهم تجاراً تعاملوا واستفادوا من الايطاليين، وصار منهم موظفون، حتى أصبح تعلم اللغة الإيطالية مسوغاً ومساعداً لفتح أبواب العمل والثراء. ويبدو أن ذلك قد شجع نسبة كبيرة من أهالى طرابلس على تعلم اللغة الإيطالية حتى بلغ عدد من تعلموها من طرابلس قبيل الاحتلال الإيطالى أكثر من ٣٠٪ من سكانها، بينما المتكلمون باللغة التركية لم يتعد عددهم ٥٪ فقط من مجموع عدد السكان.

٨ ـ نشطت إيطاليا فى مجال التعدين بطرابلس فأنشأت شركة لاستغلال الفوسفات والتنقيب عن المعادن بشكل عام فى ليبيا.

٩ ـ ازداد نفوذ الإيطاليين فى ليبيا قبل استيلائهم على البلاد، وبلغ نفوذهم حدا أن كانت الحكومة الإيطالية تتدخل لدى الدولة التركية لعزل الولاة الذين كانوا يعترضون على عبثهم فى ليبيا، وكل من حاول الوقوف فى وجه أطماعهم الاستعمارية، ومن الأمثلة على ذلك:

ما حدث للوالى إبراهيم أدهم باشا الذى تولى سنة ١٩٠٩م أمر الولاية، ودعا وحاول إصلاحها، كما أخذ يلح فى طلب الأسلحة من الدولة لتدعيم القوة الدفاعية لليبيا، كما حاول الوقوف فى وجه أعمال بنك روما الذى أصبح إخطبوطاً تشعبت أعماله فى نواحى عديدة مثل إنشائه مطبعة وجريدتين للدعاية للأعمال الإيطالية، وكذلك تدخله فى شتى شئون الحياة بليبيا، ولذلك فقد سارعت إيطاليا بطلب عزله، ورضخت الدولة لمطلبها فعزلته فى سبتمبر سنة ١٩١١م[٢٨].

الهجوم الإيطالى على ليبيا:

اختارت إيطاليا توقيتاً مناسباً لتنفيذ خطة الاستيلاء الكامل على ليبيا فقد هدأت الأحوال بين فرنسا وألمانيا بعد أزمة أغادير بالمغرب، وابتعدت أخطار الحرب العالمية (مؤقتاً)، وكانت الأحوال الجوية مناسبة فى خريف سنة ١٩١١م لتسهيل عملية إنزال الجنود الطليان على السواحل الليبية، ولذلك فقد بادرت إيطاليا إلى استدعاء جنود الإحتياط فى أوائل شهر سبتمبر، فى الوقت الذى كان فيه الإيطاليون يودعون ولى عهد السلطة التركية الذى كان فى زيارة لإيطاليا فى صيف عام ١٩١١م.

وفى الشهر نفسه (سبتمبر) فوجئ رئيس الوزارة التركية حقى باشا بعدة مطالب يحملها السفير الإيطالى فى الآستانة (دى مارتينو) أهمها :-

١ - أن يخرج الجنود الأتراك من طرابلس، وبنى غازى، ودرنة.

٢ - يتم تشكيل جنود (جندرمة) فى البلاد الليبية تحت قيادة ضباط إيطاليين.

٣ - تحويل إدارة جمارك ليبيا إلى الموظفين الإيطاليين.

٤ - أن يكون تعيين والى طرابلس بمعرفة ورضا إيطاليا.

وبعد هذه المطالب التى كانت تمهيداً تقدم السفير الإيطالى فى ٢٧ من سبتمبر سنة ١٩١١م بإنذار يحمل توقيع وزير خارجية إيطاليا إلى رئيس الوزارة التركية يعلن فيه أن الحكومة الإيطالية قد قررت احتلال طرابلس وبنى غازى احتلالاً عسكرياً متعللاً بالأضرار التى لحقت بالمصالح الإيطالية كذريعة لهم اتخذوها لتبرير إنذارهم ثم الاحتلال المرتقب، وطلب الوزير فى إنذاره عدم معارضة تركيا للاحتلال، واختتمه بطلب الرد فى غضون أربع وعشرين ساعة[٢٩].

ونظرة سريعة إلى الإنذار ومبرراته يلمح الباحث منها مدى استخفاف المستعمرين بعقول الشعوب المغلوبة على أمرها، ولا يجد تفسيراً سوى أن هذه أعمال تعسفية تقوم بها القوى الاستعمارية دون أن تراعى قوانيناً دولية أو أعرافاً يمكن الرد عليها.

وفى يوم ٢٨ من سبتمبر سنة ١٩١١ ظهر الأسطول الإيطالى أمام سواحل مدينة طرابلس، وفى اليوم التالى ٢٩ منه أعلنت الحرب، وطلب قائد الأسطول تسليم المدينة فى ظرف أربع وعشرين ساعة، وفرض الحصار البحرى على الميناء، وهدد بضرب المدينة بمدفعية الأسطول[٣٠].

كانت القـوات الإيطالية المهـاجمـة تتكون من ٣٤,٠٠٠ جندى من المشاة، ومـعهم ٦,٣٠٠ من الفـرسان، ومـجمـوعة من مدافـع الميدان، وأخرى مدافع جبلية فى حين لم يتجـاوز عدد القوات الموجودة فى ليبيا بما فيهم الأهالى ٥٠٠٠ رجل فى طرابلس، و ٢٠٠ فى برقة(٣١).

وقد اعـتقـد الإيطاليون أن السنوسـيين على خلاف مع تركـيا، ولم يتوقعوا منهم مـقاومة، حتى فوجئوا برجال الـسنوسيـين يرفعون راية الجهاد ويتقدمون غـير عابئين بما ينتظرهم من قدر محـتوم، ولم يبالوا بالموت فى سبيل عقيدتهم والزود عن بلادهم وترابهم.

وخاض المجاهدون معارك طاحنة غير متكافئة فى العدد والعُدة. ففى برقة انتظم المدافعون فى أربعة معسكرات كان على رأس المعسكر العربى : عزيز المصرى ومعسكر طبـرق : أدهم باشا الحلبى، وعلى معسكر درنة مصطفى كمال (أتاتورك) - رئيس الجمهورية التركـية فيما بعد -، ومعسكر الجبل : عبـد القادر الغناى، الذين خاضوا معـارك كبيرة من بينها مـعركة الضبط قرب درنة ومعركة القويهات قرب بنى غازى.

واضطر الإيطاليـون إلى خـوض مـعـركـة دامـية فـى طرابلس عند بيرطبراس وقرقارس، وغيرها(٣٢).

ولم تهدأ المقاومة الليبيـة الإسلامية طوال ما تبقى من سنة ١٩١١م، وكذلك سنة ١٩١٢م التى اشترك فيهـا العدد القليل الذى كان يمثل الحامية العثمانيـة، واستطاع الطرفان تكبيد الإيطاليين خسـائر فادحة اضطرتهم إلى حصر أنفسهم فقط فى مجال ومدى مدفعيتهم يحتمون بها دون التوغل فى الداخل الليبى وشاركت أعداد غيـر قليلة من مجاهدى تونس، ومصر رغم الحصار والتضييق الذى فرضتـه كل من فرنسا وانجلترا على الحدود التونسية

والمصرية الأمر الذى أوقع إيطاليا فى حرج دولى بالغ لأنها أعلنت احتلالها لليبيا دون أن تتمكن من السيطرة على البلاد، واستمرار المقاومة العنيفة والعنيدة التى كان الإيطاليون يقابلونها بعنف وشدة بالغة حيث أقاموا المجازر واستباحوا قتل الأهالى بلا هوادة(٣٣).

ونظراً لظروف تركيا الحربية والسياسية، واشتعال الحرب البلقانية اضطرت إلى عقد معاهدة أو شى لوزان مع إيطاليا فى أكتوبر سنة ١٩١٢م وافقت فيها تركيا على سحب جنودها وضباطها من ميدان القتال فى طرابلس وبرقة، وأعلن السلطان العثمانى محمد الخامس أنه تنازل عن حقوقه فى طرابلس وبرقة لأهلها ومنحهما استقلالاً داخلياً، فى الوقت الذى أصدر فيه ملك إيطاليا منشوراً إلى آهالى ليبيا بأن بلادهم قد باتت خاضعة للسيادة الملكية الإيطالية.

حينئذ خلا الميدان من الوجود التركى الرسمى، وتحول العبء كله فى المقاومة للزعامة الشعبية الدينية الليبية وهى السنوسية.

ليبيا فى الحرب العالمية الأولى:

ورغم حصار السواحل الليبية من قبل بريطانيا مجاملة لحليفتها إيطاليا فى الحرب العالمية الأولى حتى لا تتسرب المؤن والإمدادات من مصر أو غيرها، إلا أن الغواصات الألمانية كانت تتمكن فى بعض الأحيان من إمداد السنوسيين بقيادة أحمد الشريف بالمؤن والذخيرة، وبعضهم لوازمهم الآخرى.

ولكن أحمد الشريف (الزعيم السنوسى) قد تورط فى حملة استنفذت قواه وطاقات المجاهدين معه دون جدوى بعد أن أو عزت إليه كل من تكريا وألمانيا بالهجوم على مصر لشغل أكبر عدد من الجيش

الإنجليزى فى مصر حتى تتمكن الدولتان من الهجوم على قناة السويس وقطع مواصلات انجلترا فى هذا الموقع الاستراتيجى الهام.

وتمكن السنوسيون فى ديسمبر سنة ١٩١٥م من الاستيلاء على السلوم ومرسى مطروح، إلا فشل السنوسيين فى تدبير المؤن لهم مكن الإنجليز من تضييق الخناق عليهم واسترداد المدينتين فى فبراير ومارس سنة ١٩١٦م.

وإزاء فشل حملة أحمد الشيف (السنوسية) ثار الخلاف بينه وبين ابن عمه محمد إدريس السنوسى تنازل له الأول عن زعامة السنوسية وغادر جغبوب إلى طرابلس الغرب، ومنها على متن غواصة ألمانية إلى الآستانة التى سافر منها إلى الحجاز حيث عاش فيه حتى وافته المنية سنة ١٩٣٣م[٣٤].

ورغم أن الحملة - المشار إليها - قد أساءت العلاقات بين الإنجليز والسنوسيين إلا أن إدريس السنوسى قد تمكن بفضل علاقاته الطيبة التى كان يسعى إليها مع الإنجليز قد ساهمت فى إجراء مفاوضات بين الطرفين انتهت بتوقيع اتفاق أطلق عليه (اتفاق عكرمة) نص على تحديد مناطق نفوذ لكل من السنوسيين والإيطاليين، وإيقاف الحرب بينهما، وحرية التنقل بين المنطقتين، وإعادة أملاك السنوسيين لهم، وتمخض عن هذا الاتفاق أيضاً إعادة فتح الطريق إلى مصر، وسمح الإنجليز للسنوسيين بحكم واحة الجغبوب رغم أنها كانت أراضى مصرية[٣٥].

وفى سنة ١٩٢٠م عقد اتفاق الرجمة بين الإيطاليين والسنوسى تم الاعتراف فيه بالأخير أميراً وحاكماً مدنياً على القسم الداخلى من برقة، وباتت لبرقة حكومة وراثية، فى الوقت الذى احتفظ فيه الإيطاليون بساحل

برقة تحت أيديهم، مع تصفية وجود معسكرات المجاهدين، وألا تحتفظ بأكثر من ألف رجل حوله، على الرغم من معارضة القيادات الوطنية ومشايخ القبائل لهذه الاتفاقية(٣٦).

قيام جمهورية طرابلس:

عقد فى مدينة مسلاته مؤتمراً وطنياً فى نوفمبر سنة ١٩١٨م أعلن فيه قيام جمهورية طرابلس، وتم اختيار أربعة قادة لرئاستها بسبب صعوبة الاتفاق على زعيم واحد وهم (سليمان البارونى، والسويحلى، وبلخبير، وعبد الرحمن عزام) واضطرت إيطاليا للإزعان لنظام الحكم الجديد فى طرابلس (مؤقتاً)، وأن تشارك فى حكم البلاد بالتعاون مع السلطة الوطنية الجديدة بعد أن أصبح لهم برلمان مشابه لبرلمان برقة(٣٧).

وبعد هذه الخطوة الجريئة من أبناء طرابلس ومساعديهم المسلمين، بادروا بخطوة أشد عندما طالبوا بوحدة طرابلس وإمارة السنوسى فى برقة، وبالفعل عرضوا الأمر على السيد محمد بن إدريس السنوسى الذى تردد وتلكأ فى الأمر لعلاقته الطيبة مع الإيطاليين، ولكن أهل طرابلس كتبوا وثيقة البيعة بالإمارة على شطرى الأمة الليبية فى يوليو سنة ١٩٢٢م وأرسلوها للسيد إدريس الذى قبلها ووعد بتنفيذها.

إلا أن السيد إدريس ما لبث أن غادر ليبيا فى ديسمبر سنة ١٩٢٢م متعللاً بسوء حالته الصحية، وانتقل منها إلى القاهرة حيث تبعه مجموعة من كبار الزعماء، ويبدو أنه فضل الجهاد من على منابر القاهرة ضد الاحتلال الإيطالى خاصة بعد الانقلاب الفاشستى فى إيطاليا بزعامة موسولينى الذى اتسم بالتعصب القومى، والتعالى العنصرى الذى انعكس أثره السئ على مستعمرة ليبيا باستخدام العنف والشدة فيها(٣٨).

فقد ساءت أحوال الأهالى، ولا سيما بعد أن أعلن الحاكم الإيطالى بونجوفانى Bonguiovani إلغاء كل المعاهدات واتفاقات الصلح التى عقدت مع السنوسيين، مما أشعل الثورة والمقاومة الليبية فى كل البلاد، وقد تحمل عبء القيادة فيها بعد رحيل السيد إدريس إلى مصر زعيم جديد قاد أهله فى حرب عنيفة أشبه بحرب العصابات (الضرب والكر والفر) هو الزعيم والقائد عمر المختار.

وكان المجاهد عمر المختار قد شارك فى قتال الإيطاليين منذ سنة ١٩١١ حتى تولى قيادة المقاومة وهو فى سن الستين بعد أن عاد من القاهرة التى ذهب إليها مصاحباً السيد محمد إدريس السنوسى، وكان عليه تنظيم رجاله إلى فرق بقائد يتولى شئون رجاله، وامتازت عملياته بالضرب السريع والضرب ليلاً حتى لقد قيل أن فى ليبيا سلطتان إحداهما: نهاراً (سلطة الإيطاليين) وثانياً: ليلاً (سلطة السنوسيين).

واشترك فى المقاومة كل شعب ليبيا بطريقة مباشرة حتى أصبح لعمر المختار رجال وعيون فى كل موقع إيطالى، كما ساعده ما كان يرسله السيد/ إدريس من مصر لمعاونة المختار من مؤن وأسلحة وعتاد ساعدته على الاستمرار، إلا أن الإيطاليين قابلوا هذه المقاومة بالبطش وسفك الدماء وإغلاق زوايا السنوسية وإقامة حاجز من الأسلاك الشائكة المكهربة على الحدود الليبية المصرية حتى لا تتسرب الأسلحة من مصر.

وإزاء هذه الإجراءات العنيفة ضعفت المقاومة بعد أن نضبت الإمدادات والمساعدات الخارجية، وسقطت الكفرة فى يناير سنة ١٩٣١م فى أيدى الإيطاليين ومع ذلك استمر عمر المختار فى المقاومة حتى وقع أسيراً فى أيدى الجنود الإيطاليين فى ١١ سبتمبر سنة ١٩٣١م وأودع السجن حتى انعقدت المحكمة الطائرة التى كان أعضاؤها ينتقلون بالطائرة لسرعة الحكم على المتهمين بالثورة.

وفى الخامس عشر من الشهر نفسه حكم على الزعيم الوطنى عمر المختار بالإعدام رغم شيخوخته، وجرحه الذى كان مازال ينزف فأعدم فى صباح اليوم التالى ١٦ من سبتمبر سنة ١٩٣١م.

وبذلك انهارت المقاومة الليبية، ولم يبق لها سوى الكتابة فى الصحف المصرية والدعوة إلى استقلال ليبيا حتى قيام الحرب العالمية الثانية ودخول إيطاليا الحرب ضد الحلفاء الذين تمكنوا من طردها نهائياً من ليبيا فى فبراير سنة ١٩٤٣، وظهرت فى البلاد ثلاث إدارات : هى بقية، وطرابلس، وفزان سيطرت انجلترا على الأولين بينما سيطرت فرنسا على الأخيرة، وحينئذ نشطت الحركة السياسية تطالب بالاستقلال، ووحدة البلاد فى إدارة واحدة وطنية.

وبالفعل نجحت القوى الوطنيه فى انتزاع استقلال البلاد عندما صدر الأمر الملكى البريطانى بإلغاء السلطة البريطانية فى طرابلس وبرقة، وأمر آخر صدر بإلغاء سلطات فرنسا فى فزان.

وفى ٢٤ من ديسمبر سنة ١٩٥١م أعلن الملك / محمد بن إدريس السنوسى أن ليبيا أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة[٣٩].

وفى سنة ١٩٥٣ انضمت ليبيا إلى جامعة الدول العربية، واستمرت الملكية فيها تحت زعامة محمد إدريس السنوسى حتى تمكن الجيش الليبى من الاستيلاء على السلطة فى البلاد فى سبتمبر ١٩٦٩م عندما كان الملك محمد إدريس البالغ من العمر ٧٩ عاماً فى رحلة علاجية بالخارج، وتولى الحكم فى البلاد زعيم الثورة (ثورة الفاتح من سبتمبر سنة ١٩٦٩م) العقيد معمر القذافى.

الهوامش

(١) انظر تفاصيل هذه الفترة فى كتاب :
د / جلال يحي ـ المغرب الكبير ـ جـ ٣ ـ النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨١ ـ ص ٧ وما بعدها .

(٢) د/ محمد عبد الغني سعودي ـ الوطن العربي ـ القاهرة ـ ص ٤٤٢ .
وانظر :مجيد خدوري ـ ليبيا الحديثة ـ ترجمة نقولا زيادة ـ بيروت ـ ١٦٠ ـ ص ٩ .

(٣) استأصال المقام لبني حفص في حكم طرابلس إذ أنهم حكموا حوالي تسعين سنة فيما بين سنة ٦٣١هـ ـ ٧٢١هـ .
وانظر : محمد ناجي (نائب طرابلس) وآخر ـ طرابلس الغرب ـ ترجمة/ أكمل الدين محمد إحسان ـ مكتبة الفكر ـ ليبيا ـ ١٩٧٣ ـ ص ١٦٠

(٤) د/ جلال يحي ـ المغرب الكبير ـ جـ ٣ ـ ص ٦،٧ .

(٥) نقولا زيادة ـ ليبيا في العصور الحديثة ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة ـ ص ٣٤ .
وانظر تفاصيل مشكلات الامبراطور شارل الخامس في كتاب : د/عبد الحميد البطريق وآخر ـ التاريخ الأوربي الحديث ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ص ٨٣ وما بعدها .

(٦) نقولا زيادة ـ ليبيا في العصور الحديثة ـ ص ٤٤ .
وانظر: د/ عبد العزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية جـ ٢ ـ ص ٩٢٨ ، ٩٢٩ .
و : محمد ناجي ـ طرابلس الغرب ـ ص ١٦١ .

(٧) د/ عبد العزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية جـ ٢ ـ ص ٩٣٠ ، ٩٣١ .
وانظر : أحمد الأنصاري ـ المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ـ مكتبة الفخراني ـ ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٨) محمد ناجي ـ طرابلس الغرب ـ ص ١٧٧ وما بعدها .
وانظر : أحمد الأنصاري ـ المنهل العذب ـ ص ٣١٥ .

(٩) محمد ناجي ـ طرابلس الغرب ـ ص ١٨٢ وما بعدها .
وانظر : د/ محمد شوقي الجمل ـ المغرب الكبير في العصر الحديث (ليبيا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب) ـ الأنجلو المصرية ـ طـ ١ ـ القاهرة ـ ١٩٧٧ ـ ص ١٣٧

(١٠) أحمد الأنصتري ـ المنهل العذب ـ ص ٣٤٦ .
(١١) د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٤١ .
(١٢) جلال يحى المغرب الكبير ـ جـ ٣ ـ ص ٦١ .
وانظر : د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٤٢
و محمد ناجي ـ طرابلس الغرب ـ ص ١٨٩ .
(١٣) د / جلال يحي ـ المغرب الكبير ـ جـ ٣ ـ ص ٦٠ ، ٦١ .
(١٤) د / زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٤١٥ .
(١٥) د / جلال يحي ـ العالم العربي ـ ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .
(١٦) د / شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٤٣ ، ١٤٤ .
(١٧) محمد ناجي ـ طرابلس الغرب ـ ص ١٩٨ .
(١٨) محمد ناجي ـ طرابلس الغرب ـ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
(١٩) الأشهب (محمد الطيب بن إدريس) ـ السنوسي الكبير ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ ـ ص ٨ وما بعدها .
وانظر : Pritchard, Evans : The Sanusi of Cyrenaica (oxford) 1948,p. 11 - 13 .
وانظر : د / شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٥٤ وما بعدها .
(٢٠) Pritchard, Evans : op.cit . p 23 - 25 .
وانظر : د / شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٥٨ ، ١٥٩ .
(٢١) د / شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٦٠ ، ١٦١ .
(٢٢) Pritchard, Evans : op.cit . p . 102 .
وانظر : د / شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢٣) د / شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٤٨ .
(٢٤) الزاوي (الظاهر أحمد) ـ جهاد الأبطال في طرابلس الغرب ـ ١٩٧٠ ـ ص ١٩ وما بعدها .
(٢٥) Safwat, M. : Tunis and The Great Powers - 1943 . p . 124 .
وانظر : د / شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .
(٢٦) فقد كان هناك تنسيق بين بريطانيا لإطلاق يدها في مصر والسودان وغيرهما من المناطق في مقابل أن يكون الوجود الإيطالي في شرق وشمال أفريقيا سداً في وجه

فرنسا من جهة ، وفي وجه المهديين في السودان من جهة أخرى .

وانظر : Hollis Chistopher : Italy in Africa - London - 1941 - p. 21 .

(٢٧) محمد ناجي ـ طرابلس الغرب ـ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٢٨) د / شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

(٢٩) د / شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

(٣٠) د / جلال يحي ـ العالم العربي ـ ص ٤١٠ .

(٣١) Prichard Evans : op cit . p . 108 .

(٣٢) محمود الشنيطي ـ قضية ليبيا ـ القاهرة ـ ١٩٥١م ـ ص ٤٨ .

وانظر : د / محمد فؤاد شكري ـ السنوسية دين ودولة ـ القاهرة ـ ١٩٤٨م - ١٢٥ وما بعدها .

(٣٣) انظر تفاصيل المقاومة في كتاب :

د / جلال يحي ـ العالم العربي ـ ص ٤١١ وما بعدها .

(٣٤) د / شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .

وانظر : د/ زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(٣٥) د / محمد فؤاد شكري ـ السنوسية دين ودولة ـ ص ٢٠٦ .

وانظر : د/ زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٤٣٤ .

(٣٦) الزاوي ـ جهاد الأبطال ـ ص ٢٧٢ وما بعدها .

وانظر : Pritchard Evans : op cit . p . 15 .

(٣٧) د / شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ٣٨٧ .

(٣٨) محمود الشنيطي ـ قضية ليبيا ـ ص ٩٤ ، ٩٥ .

وانظر : Pritchard : op cit . p . 15 .

(٣٩) د / شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ٣٨٨ وما بعدها .

وانظر : محمد فؤاد شكري ـ السنوسية دين ودولة ـ ص ٢٩٣ وما بعدها .

و : نقولا زيادة ـ ليبيا في العصور الحديثة ـ ص ١١٠ ، ١١٢ .

الفصـــل الخامس

تونـــــس

تونس هى البلد الثانى فى المغرب العربى من جهة المشرق، وأصغر أقطار المغرب مساحة، وهى واسعة السهول، وبها مدن هامة عديدة من بينها

عاصمة البلاد (تونس)، وصفاقس (عاصمة الجنوب) ومن مدنها: سوسة التى تمتاز بآثارها ومســاجدها الكبيرة، وبنزرت الذى كان مــيناءاً حربياً شهيراً، والقيروان كمركز دينى ومــبانيها الإسلامية (أول مدينة بناها المسلمون فى منطقة تونس)، وقابس وهى مدينة ساحلية على شاطئ البحر المتوسط وتقع كذلك على نهر قابس ونابل المدينة الشهيرة بخصوبة تربتها[1].

وقد سهل موقع تونـس على البحر المتوسط وسهولة العـبور إليها وصول الغزاة، التجــار وغيرهم حيث غزاها الفينيقيـون، والبيزنطيون، والعرب والأتراك والأوربيون فــالتقت فيها مــدنيات عديدة ازدهرت على ضفاف البحر الأبيض المتوسط وسكانها الأصليون من البربر الذين تفاعلوا مع الحضارات الوافدة، وشاركوا فى مسيرة الحضارة البشرية.

وفى العصر الإسلامى تعددت الدول التى حكمت تونس من أغالبة زمن العباســيين من ٨٠٠ إلى ٩٠٩م، ودولة الفاطميين من سنة ٩١٠م، والعهـد الصنهاجى من (٩٧٢-١١٧١)م، وبعـده دولة المرابطين ثم دولة الموحدين من (١٠٥١-١٢٢٨)م، وتبعهم الحفصيون من (١٢٢٨-١٥٧٤)م الذين هم فرع من الحـفصيين الذين ظلوا فى حكم البــلاد حتى النصف الثانى من القرن الســادس عشر عندما استــولى عليها العثــمانيون سنة ١٥٧٣م[2].

امتداد النفوذ العثمانى إلى تونس:

وكان الضعف قــد سرى فى أوصال الأسرة الحفصــية فى منتصف القرن الخامس عشر مما جعلها تفــتح ذراعيها للأسبان الذين حصلوا على

معاهدة أعطتهم امتيـازات واسعة أباحت لهم سكن بلدان القطر التونسى، ليس هذا فحسب بل تنازل الحفصيون للأسبان عن مدن عنابة، وبترزت، وحلق الوادى.

ونظراً لهذه الحالة المعيبة فـإن الأوضاع لم تستقر فى تونس، ونشب خلاف بين الأمير الحفصى أبى العباس، ووزيره أبى الطيب الخضار، الذى بادر بالاتصال بوالى الجزائر (علج على)، وحـرضه على احتلال تونس. وبالفعل لم يتوان العلج وتقدم على رأس جيش كـبير مكنه من الإستيلاء على تونس سنة ٩٧٢هـ / ١٥٦٩م وأقام عليها أحد قواده حاكماً، ثم أخذ البيعة للسلطان سليم الثانى العثمانى، فى الوقت الذى فر فيه الحفصى إلى الأسبان يستنجد بهم، وبالفـعل وافق الملك فيليب الثانى على إرسال قوة كبيرة على أن يقتسم البلاد التونسـية مع الحفصيين وتمكن الطرفان بالفعل من السيطرة على تونس.

وفى سنة ١٥٧٣م تمكنت قوة عثـمانية كبيرة بقـيادة سنان باشا من الهجوم عـلى تونس وطرد الأسبان منها، كـما تم طرد الموالين لهم إلى أطراف البلاد، وكان العلج على الذى تولى قيـادة الأسطول العثمانى قد اشترك فى هذا الهجوم، وأخذ فى تقوية البلاد التونسية بتحصينات وأسلحة للحفاظ عليها من أخطار الأسبـان بخاصة والأوربيين بعامة، وفى النهاية تمكن سنان باشا، وعلج على من تضييق الخناق على الأسبان ومن والوهم حتى اضطرت الحاميـات الأسبانية إلى الاستسلام للجـيش العثمانى وتم القبض على الأمير الحفص الذى أرسل إلى اسلامبول(٣)، وبذلك انتقلت دولة الحفصيين من على مسرح التـاريخ إلى كتبه بعد أن قضت فى حكم البلاد أكثر من ثلاثمائة وخمسين عاماً.

حكم الدايات والبايات فى تونس :

بعد أن تمكن سنان باشا من فتح تونس، والقضـاء على الاستعمار الأسبانى ومن ساروا فى فلكه من الحفصـيين حينئذ آخذ سنان باشا ينظم شؤون تونس فألحقها بولاية الجزائر فى أول الأمر، وأوجد ديواناً اشترك فيه أعيان البلاد، ومن الناحية العسكرية ترك لحماية البلاد التونسية أربعة آلاف جندى من جنود الإنكشـارية، وعلى رأس كل مائة جندى منهـم ضابط أطلق عليه لفظ الداى أى السيد باللغتين الطورانية والفارسية، والخال باللغة التركية، وعلـيهم رئيس هو الأغا، وفى مجال جبـاية الأموال عهد إلى مأمور خاص بها لقب بالباى.

وبعد أن أتم سنان باشا تنظيم البلاد والوظائف عاد إلى الإستانة، إلا أن صغار الجند قد ثاروا على رؤساء الـديوان بعد مرور أقل من عشرين عاماً أى فى سنة ٩٩٩هـ ١٥٩١م، وعصفوا بتـبعية تونس لوالى الجزائر، ثم استقر الرأى على تعيين أحد الدايات وهو : إبراهيم ود على والياً على البلاد، وبعد تلكؤ اضطرت الحكومة العثمانية إلى إقرار هذا الوضع رغماً عنها، وظل تتابع الدايات فى حكم تونس من سنة ١٥٩١م إلى ١٦٤٠م[٤] حيث تولى عدد كبير منهم طوال هذه الفترة كان من أشهرهم :

عثمـان داى (١٥٩٨ـ١٦١٠) الذى بذل جهداً محموداً فى تعـمير البلاد وأصدر قـوانيناً منظمة لراحة الأهالى، كما شـارك بسهم وافر فى توفير حياة آمنة لمهاجرى الأندلس الذين فروا بدينهم (بعد فتك الأوروبيين بأعداد كبيرة منهم) فأقطعهم الأراضى، ووهبهم الأموال، مما وفر لهم حياة كريمة، وقامت عدة مدن جديدة جمعتهم وشاركوا بجهودهم فى تعميرها.

كما كان من بين الدايات الذين سجلوا صفحات طيبة فى التاريخ يوسف داى الذى كان من آثاره المدرسة اليوسفية، والجامع اليوسفى. وشهد عهده نزاع على الحدود بين الجزائر وتونس، وتمكنت تونس فى عهده أيضاً من إعادة جزيرة جربة من ولاية طرابلس العثمانية(٥).

وبعد سنة ١٦٤٠م ظهرت سلطة أخرى سيطرت على الحكم عندما نجح أحد البايات وهو مراد باى فى السيطرة على شؤون الحكم فى تونس، وتمكن من الحصول على لقب باشا من الدولة العثمانية، فتحول الحكم من بعده لأبنائه فأسس بذلك أسرة حاكمة هى الأسرة المرادية تولت من سنة ١٦٤٠ إلى سنة ١٧٠٢م.

ورغم الخلافات والنزاعات الأسرية التى نشبت بينهم، إلا أنهم تركوا أعمالاً جيدة كان من بينها بناء المساجد والمدارس، وغير ذلك من الأعمال الخيرية.

وفى سنة ١٧٠٥م انتقلت الزعامة، وحكم الولاية إلى أسرة أخرى هى أسرة الحسينية التى أسسها حسين بن على وهى التى استمرت فى الحكم حتى سنة ١٩٥٧ عندما حصلت تونس على استقلالها وأعلن فيها قيام الحكم الجمهورى.

ويعد أصل المؤسس (حسين بن على) إلى جزيرة كريت حيث جاء أبوه كجندى ونشأ ابنه حسين فى كنف بنى مراد (البايات)، وارتقى فى المناصب حتى تقلد أمر الولاية فعمل على تحصينها وتقوية سورها، واعتنى بأمر الزراعة والصناعة والتجارة فازدهرت فى عهده، وأنشأ مدرستى الحسينية والنخلة، كما بنى قصراً فى بارد وجعله مقراً رسمياً لحكومته، وبنى مسجداً، وعمل على إعادة تعمير مدينة القيروان بعد ما تم تخريبها فى حروب ومنازاعات الأسرة المرادية إبان فترة حكمهم للبلاد.

ومن ناحية أخرى فقد عمد حسين باى إلى حصر الوراثة فى بيته يتداولها الأكبر فالأكبر من ذريته، ومع ذلك فقد ثار عليه ابن أخيه، وانتهى الأمر بمقتل حسين فى جنوب القيروان سنة ١٧٤٠م وتولى على بن محمد الحكم خلفاً لعمه، مما أشعل لهيب الحروب بين أفراد الحسينيين، وتدخل الجزائر فى شئون تونس[٦].

ومن أبرز حكام البايات فى تونس الذى أثرنا أن نفرد له هذه العجالة هو:

المشير احمد باى (١٨٣٧-١٨٥٥) م:

فقد حفل عهد هذا الرجل بالكثير من الجوانب الإصلاحية، إلا أنه قد ركز اهتمامه الأكبر بالجيش والنهوض به وبجنوده حيث عمل على تدريبهم حتى باتت عنده قوة لا يستهان بها، فأصبح لتونس جيشاً يزيد على ثلاثين ألفاً من الجنود المشاة، وفرقة من الخيالة، كما اكتملت لديه أربعة آلايات من المدفعية ودعم أسطوله بعد أن اشترى اثنى عشر باخرة حربية وبارجة كبيرة سماها الحسينية وجهز مرسى حربياً جعل به داراً لصناعة السفن، ومصانع لتجهيز وإصلاح الأسلحة المختلفة، وفى المجال نفسه أنشأ أحمد باى مدرسة عسكرية لتخريج الضباط والموظفين، والمهندسين، وأطلق عليها أسماء عدة (مكتب المهندسين) أو (مكتب العلوم الحربية) أو (مدرسة بارودو العسكرية)، واستطاع أن يأتى لها بمدرسين إيطاليين، وإنجليز، وفرنسيين حيث تم تدريس الرياضيات، والتعبئة الحربية، إضافة إلى الجغرافيا والتاريخ.

كما اهتم أحمد باى بالتعليم خاصة التعليم الدينى بجامع الزيتونة، وملأ خزانته بأمهات الكتب، وأسس مكتبة الأحمدية سنة ١٨٤٠م، ومما يذكر له أيضاً إغلاق سوق الرقيق فى العاصمة، وإصداره أمراً سنة ١٨٤٦م بعتق جميع الرقيق فى تونس، وإخلاء سبيلهم أحراراً، ومع ذلك فقد أدت نفقات هذه الإصلاحات الباهظة إلى ظهور مشكلات مالية وتدهور اقتصاد

تونس فاضطر إلى فرض الضرائب التى أثقلت من كاهل الأهالى، وزاد من المشكلات اشتراك تونس فى حرب القرم بجانب العثمانيين ضد وسيا سنة ١٨٥٤م[٧].

ورغم محاولات الإصلاح التى تلت هذه الفترة إلا أن التدهور قد استمر طوال سنوات منتصف القرن التاسع عشر والسنوات التالية حتى وصل التدهور أقصاه.

أضف إلى ذلك أن الأجانب قد فتحت لهم أبواب ملكية العقارات. وممارسة الحرف فتدفق المهاجرون، وأصحاب المصارف والمتاجر والمغامرون من الدول المختلفة، كما كان بذخ الشخصيات والموظفين الكبار الذين يحصلون على مرتبات وعوائد كبيرة أمثال الوزير / مصطفى خزنة دار، وحصولهم على الثروة من شتى الطرق أثر فى زيادة حدة المشكلة الاقتصادية[٨].

وقد ظهر مصلحون أمثال الوزير خير الدين الذى حاول وأخلص فى مجال الإصلاح ولكنه قد لقى جزاء سنمار فى سنة ١٨٧٧م عندما عزل ولفقت له التهم، وبعده زادت وفتحت السبل أمام الأطماع الأجنبية فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا وإيطاليا يتربصان بتونس لاختيار اللحظة المناسبة للانقضاض عليها ولاسيما أن فرنسا كانت تحكم الجزائر منذ سنة ١٨٣٠م فأرادت أن تكمل استيلائها على المنطقة[٩].

الأطماع الإستعمارية واحتلال فرنسا لتونس:

كان التدهور والتخبط فى السياسة التونسية منذ منتصف القرن التاسع عشر ولاسيما فى معاملة القطاعات الأجنبية أثر فى اتجاه البلاد نحو الوقوع فى قبضة المستعمرين.

ففى سنة ١٨٥٧ صدر نظام عُرف بـ : قانون عهد الأمان، وكان يشتمل على أحد عشر قانوناً أساسياً وينص على المساواة بين من يقطنون البلاد من كل الجنسيات والمذاهب فى الحقوق والواجبات وبذلك منح الأجانب فرصاً واسعة للاستثمار، ولكن ازدادت الضغوط الأوروبية وتدخلها فى السياسة والشؤون الداخلية لتونس، ويشير البعض إلى أن ظهور هذا القانون كان بضغط ورغبة القنصلية الفرنسى والإنجليزى ليون روش Leon Rothes، وريتشارد وود Richard Wood.

كما كان لمشروع توصيل مياه زغوان فى قنوات حديدية للعاصمة تونس، واضطرار الباى إلى اقتراض مليون فرنك لتنفيذه أثره السئ على الاقتصاد الفرنسى إضافة إلى استنفاذ الأجانب للثروة التونسية واستنزاف الأموال بشتى السبل الذى ساعد على تدهور الاقتصاد فى تونس(١٠).

وعلى أثر ذلك قامت ثورة شعبية بزعامة على بن غذاهم تحولت سريعاً إلى ثورة مسلحة، عندما عمد الثوار إلى الإختفاء فى القرى والمدن لشراء الأسلحة والتدريب عليها ولكن الحكومة قابلت الثورة بالشدة والعنف، وقبضت على زعيمها فأودعته السجن حتى وافته المنية سنة ١٨٦٧م.

وكانت فرنسا تشعل الثورة من جهة لإضعاف السلطة مما يساعد على تدخلها وتحقيق أطماعها، بينما كانت تضغط لإبعاد المعارضين لمصالحها ولسياستها فى المنطقة من جهة أخرى، أما إيطاليا فكانت هى الأخرى تعمل على مد نفوذها، وأصبح لها جالية كبيرة فى تونس تتذرع بوجودهم لحمايتهم وحماية المصالح الإيطالية، ولهم العديد من المدارس والمؤسسات، والأقرب جغرافيا فالساحلين فى مواجهة كل منهما الآخر الإيطالى التونسى، كما كانت اللغة الإيطالية هى اللغة الأولى الأجنبية فى البلاد(١١).

وامتداداً للنكبات التى حلت بتونس فى هذه الفترة السابقة على الاحتلال فقد أصيبت البلاد بمرض الكوليرا الذى أودى بحياة الكثيرين من السكان، وبعده انتشر مرض التيفوس فانتشرت المجاعات وحل القحط بالبلاد.

وفى سنة ١٨٧٤ عاد خير الدين إلى الوزارة ولكنه فى هذه المرة رئيساً للوزارة بعد سقوط مصطفى خزنة دار الذى كان عقبة كأداء فى سبيل الإصلاح، وحاول خير الدين إنقاذ ما يمكن انقاذه إلا أن الفترة القصيرة التى كانت تعانى منها تونس حينئذ، وتربص المستعمرين بها[١٢].

أما موقف الدولة العثمانية فقد عمدت إلى إطلاق يد الباى فى التصرف بالبلاد وفوضته تفويضاً كاملاً بشرط الحفاظ على حقوق الباب العالى، وهى حقوق السيادة (الإسمية)، ومعاونة الدولة وقت الحرب. ورفع العلم العثمانى . . . الخ[١٣].

أما انجلترا فكانت سياستها المحافظة على الحالة كما هى تجاه السيادة العثمانية، وكان المنفذ لسياستها القنصل البريطانى ريتشارد وود[١٤].

إلا أن سيطرة فرنسا على الساحة التونسية بطرق عديدة كان أقوى فقد تمكن قنصلها روستان Roustan هناك من الحصول على امتياز مد الخط الحديدى من تونس إلى الحدود الجزائرية سنة ١٨٧٤م، وكانت أهميته غير قاصرة على الجانب الإقتصادى بل تعدتها إلى الجوانب العسكرية لنقل الجنود والمؤن إلى تونس العاصمة وربط مستعمرة الفرنسيين فى الجزائر بالمستعمرة المرتقبة (فى تونس)، فبلغ بذلك النفوذ الفرنسى مداه فى ١٨٧٨م بسبب هذه الخطوط الحديدية من جهة، ومن جهة أخرى كانت الديون التونسية نسبة كبيرة منها لفرنسا، وتتحكم فى مالية تونس عن طريق نائب رئيس اللجنة المالية فيها[١٥].

الإحتلال الفرنسى لتونس :

تذرعت فرنسا بهجوم مجموعة من أفراد قبيلة الكرومير (الكرمين) على الحدود الجزائرية وسرقة بعض المواشى فملؤا الصحف بأخبار ملفقة وأخرى صحيحة وكان هؤلاء يسكنون الركن الشمالى الغربى من تونس، وأظهر الفرنسيون فى صحفهم وأحاديثهم عجز الباى عن فرض السيطرة على هذه القبائل، وأرادوا من ذلك توضيح (كاذب) للرأى العام الفرنسى وغيره أن فرنسا بتدخلها فى تونس إنما تحمى مستعمرتها الجزائرية، على الرغم من أن هذه الحوادث عادية، وتحدثت باستمرار على الحدود من سنوات طويلة.

إضافة إلى مصالحهم فى تونس فقد عددوها كما يلى :

١ ـ وجود ٣٠٠ كم من الحدود المشتركة بين تونس والجزائر الفرنسية.

٢ ـ وجود مائة مليون فرنك فرنسا من بين ١٢٠ مليون أصل الديون التونسية للغرب.

٣ ـ أن امتياز ٢٠٠ كم من الخطوط الحديدية تخص فرنسا.

٤ ـ أن فرنسا تستغل مصايد الأصداف على الشواطئ التونسية منذ مائتى عام.

٥ ـ لفرنسا امتياز جميع مشروعات البرق والبريد.

٦ ـ أن فرنسا هى التى قامت ببناء ميناء تونس الجديد.

٧ ـ فرنسا أكبر عميل فى تجارة تونس الخارجية.

٨ ـ تمتلك فرنسا عقارات قيمتها ٥٠ مليون فرنك[١٦].

وفى أوائل إبريل سنة ١٨٨١ اعتمد مجلس النواب الفرنسى الأموال اللازمة للحملة، وتجرأ روستان القنصل الفرنسى بإبلاغ الباى التونسى بأن

فرنسا قررت التدخل لتأديب القبائل، وأنه يجب على القوات التونسية التعاون مع الفرنسية.

وفى ٢٤ من إبريل عبرت القوات الفرنسية الحدود التونسية (من الجزائر) فى اتجاهين :

الأول : فى اتجاه تونس وهدفها الكرميين، واتجه الفريق الثانى إلى إقليم الكاف وفى غضون أيام قليلة كانت القوات الفرنسية قد وصلت إلى مدينة تونس فى ١١ من مايو وأمام قصر بارد الذى يقيم به الباى وقفت القوات مهددة ومنذرة حتى ألزمت الباى بالتوقيع على معاهدة الحماية فوقعها فى ١٢ من مايو سنة ١٨٨١م[١٧].

وأخذ الفرنسيون منذ وطأت أقدامهم أرض تونس فى فرض حكمهم المباشر، وتوطيد دعائمه هناك رغم أنهم لم يقوموا بإلغاء حكم البايات فأبقوا عليه صورياً كواجهة وطنية يحصلون على توقيعه بالأمر المباشر وقتما يريدون، ومثل الحكم الفرنسى فى تونس مقيم عام كحاكم عام فعلى للبلاد تتركز فى يديه السلطات التنفيذية، وبدأت الإدارة الفرنسية تتغلغل فى المصالح والجهات التونسية الحكومية وتطور نظام الحكم سنة ١٩٢٢م عندما تم استحداث وزارات جديدة شكلت جميعها مجلس الوزراء التونسى الذى تولى الفرنسيون أمره.

كما حدث تطور وتغيير آخر فى نظام البلديات، والنظام القضائى حيث عنى الفرنسيون باحتكار الوظائف والإدارات الرئيسية لصالح الفرنسيين[١٨].

وقد أثارت إجراءات الحماية وأحداثها، وما أعقبها من احتكار للمصالح وتسيير دفة الحياة اليومية فى تونس لصالح فرنسا والسياسة التى

أرادت انتهاجها كل ذلك أثار الأهالى، ولكنها ليست كثورات الأمم العربية الأخرى التى تعرضنا لها فقد كان الحال هادئاً لو قارناه بتلك الأمم حتى الحرب العالمية الأولى.

الحرب العالمية الأولى وآثارها فى تونس:

استمر هدوء الأهالى وعدم ثورتهم تجاه الفرنسيين حتى فى الحرب الأولى بل إنهم شاركوا بجانب الفرنسيين فى الحرب بأعداد كبيرة أملاً فى مكافأتهم بالاستقلال بعد الحرب، وخاصة أن الأجواء العالمية حينئذ كانت تبشر الشعوب المستعمرة بنيل الاستقلال لوجود مبادئ ويلسون تتناقلها الصحف والأحاديث، وحركات التحرر فى مصر والمشرق، والمقاومة الليبية على الحدود مع تونس، ومع مصر. الخ.

وفى سنة ١٩٢٠م نشأ حزب الدستور فى تونس بزعامة الشيخ عبد العزيز الثعالبى كحزب قومى، ومعظم قادته من جماعة الزيتونة الملتزمين الأكثر وطنية الذين اتهمهم المتعلمون فى فرنسا (المتفرنسون) بالرجعية والتخلف لأنهم تناولوا التعليم الدينى فى جامع وجامعة الزيتونة الإسلامية.

واتجه غالبية الشعب التونسى للالتفاف حول هؤلاء الوطنيين الذين كان أغلبهم من بين علماء الدين والقضاة والتجار البارزين، وقادة أصحاب المهن، وهم على كل حال يختلفون عن أعضاء الأحزاب الأخرى (الشيوعية والاشتراكية، والعمالية والفاشية)، وبدأ أعضاء هذا الحزب يتقدمون بطلباتهم التى كانت عادية تتلخص فى : مجلس تشريعى وحكومة مسؤولة أمامه وتولى التونسيين الوظائف، والمساواة فى الرواتب مع الفرنسيين، ومجلس بلدية، وحرية الصحافة، ورغم ذلك فقد رفضتها السلطات الفرنسية، بل زادت فى إشعال المواجهة عندما قبضت على

الثعالبى زعيم حزب الدستور القديم فى باريس وسجنته عدة أشهر فى تونس[١٩].

وكانت هناك تيارات أخرى تدعو من ناحية ثانية للحقوق الوطنية التونسية بعضها ماركسى، وشيوعى، والبعض الآخر يبحث عن حقوق العمال والأعمال كل هذه التيارات والعوامل الأخرى أدت إلى إضعاف حزب الدستور القديم، ولاسيما بعد أن هاجر زعيمه الثعالبى، وتم حل الحزب نهائياً سنة ١٩٤٤م، ففسح المجال لقيام حزب الدستور الجديد، الذى كان من بين أعضائه البارزين الحبيب بورقيبة (رئيس البلاد فيما بعد).

برزت شخصية بورقيبة من كتاباته الصحفية فى جريدة العمل التى كانت تظهر رغبته فى بناء البلاد التونسية على أسس اجتماعية، وسياسية حديثة، كما كان مشبعاً بفكرة الديمقراطية التى راجت فى الغرب حينئذ، وشارك فى تنظيم الإضرابات التى عمت تونس فى سنة ١٩٣٨م، وكانت فرصة للفرنسيين للقبض على شباب الحزب وبالفعل قبضوا على ثلاثة آلاف من أعضائه من بينهم بورقيبة[٢٠].

الحرب العالمية الثانية:

وفى الحرب العالمية الثانية تعرض الباى محمد (حاكم تونس) إلى مساومات من الفريقين المتحاربين، فقد عرضت عليه السلطات الألمانية إسقاط الحماية الفرنسية عن تونس نظير التعاون معهم، وفى الوقت نفسه عرض روزفلت انضمام تونس للحلفاء، ولكن الباى رفض العرضين، واختار حكومة وطنية دون استشارة الفرنسيين (كما جرت العادة) وغلب فى حكومته جانب الدستوريين القدامى الذين كانوا يميلون إلى المحور للتخلص من الحماية الفرنسية مثل كل الأحزاب اليمينية فى العالم العربى.

ولذلك فقد حاولت فرنسا القضاء على كل النزاعات الاستقلالية وكل من يدعو لها فى تونس وأمام رفض الباى التوقيع على التنازل عن العرش تم نفيه إلى منطقة منعزلة فقام الثعالبى وزملاؤه يطالبون بعودة الحاكم الشرعى للبلاد وهو الباى.

فى الوقت الذى أحدث فيه قيام مجلس الجامعة العربية أثراً تحررياً فى نفوس أهل المغرب بشكل عام، ودفع ذلك بورقيبة للقيام بمغامرة للفرار من تونس إلى مصر متخفياً عبر الحدود الليبية بقارب صغير، ثم أكمل رحلته على ظهور الجمال حتى الحدود المصرية، وكان هدفه من هذا الانتقال، الاستعانة بالدول العربية المستقلة فى المشرق لتحرير تونس، ومن القاهرة انتقل إلى دول عديدة من بينها الولايات المتحدة واتصل بفرنسا فى محاولة طلب الاستقلال لبلاده(٢١).

استقلال تونس عن فرنسا سنة ١٩٥٦م:

وبعد أن مارست هيئة الأمم المتحدة نشاطها حاولت تونس عرض قضيتها عليها سنة ١٩٥١م ولكنها لم تنجح فى إدراج القضية إلا فى سنة ١٩٥٢م دون أن يحدث ذلك نتيجة إيجابية فثار هياج الأهالى الذى اضطر فرنسا إلى إصدار وعد صريح للباى التونسى بالاستقلال، عرف هذا الوعد بتصريح قرطاجة أصدره رئيس الحكومة الفرنسية الاشتراكية منديس فرانسى(٢٢).

وفى يونيو سنة ١٩٥٥م عرضت الحكومة الفرنسية على تونس الاستقلال مع بعض الشروط، إلا أن الشعب التونسى رفضها، وواجهوا هذه الشروط بالاضطرابات التى اضطرت فرنسا إلى الإعتراف بالاستقلال الكامل لتونس فى ٢٠ مارس سنة ١٩٥٦ مع الاحتفاظ بقاعدة بنزرت

البحرية، هذه القاعـدة التى استمرت تتبع فرنسا حتى حـاصرتها القوات التونسية فى ٢٠ من يوليو سنة ١٩٦١، وتمكنت القوات الفرنسية من رفع الحصار، الأمـر الذى اضطر تونس لرفع الأمر إلى الأمم المتحـدة بعدها توصل الطرفان الفرنسى والتونسى الى إتفاق غادرت بعده القوات الفرنسية القاعدة البحرية فى أكتوبر سنة ١٩٦٣م.

وقد تبع حصول تونس على اسـتقلال سنة ١٩٥٦م أن ألغت الملكية وإعلان قيام الجمهورية فى ١٥ من يوليو سنة ١٩٥٧م(٢٣).

الهوامش

(١) د / محمد عبد الغني سعودي ـ الوطن العربي ـ ٤٧٠ .

(٢) د/ زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣ .

(٣) أحمد الأنصاري ـ المنهل العذب ـ ص ٢٢٩ .

وانظر : د / محمد شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٤) محمود شيت خطاب ـ المغرب العربي ـ جـ ٢ ـ دار الفكر ـ ط ٢ ـ بيروت ـ ١٩٧٣م . ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٥) د / محمد شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٠٧ ، ١٠٨

(٦) أحمد بن أبي الضياف ـ إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان جـ ٤ ـ تونس ـ ١٩٦٤ ـ ص ٢٥ .

وانظر : د / محمد شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٠٩ .

(٧) محمد بيرم التونسي ـ صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار جـ ٢ ـ القاهرة ـ ١٨٩٠ ـ ص ٦ وما بعدها.

وانظر : أحمد بن أبي الضياف ـ إتحاف أهل الزمان ـ جـ ٤ ـ ص ١٤٦ وما بعدها .

و : د / محمد شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١١٢ .

وانظر : Wight . Iling : Tunisia from Protectorate to Republic indiana - 1967 . op . 18 - 19 .

(٨) Safwat m.M. : op cit .p. 27 - 51 .

وانظر : محمد بيرم التونسي ـ صفوة الاعتبار ـ جـ ٢ ـ ص ٢٣ .

و : Dwight L.Ling : Tunisia . op . cit . p . 19 .

(٩) محمد بيرم التونسي ـ صفوة الاعتبار ـ جـ ٢ ـ ص ٨٣ .

(١٠) محمد بيرم التونسي ـ صفوة الاعتبار ـ جـ ٥ ـ ص ١٥ .

وانظر : Safwot M. Tunis and The Powers . p . 50 .

(١١) **عارضت انجلترا وفرنسا وتركيا المساعي الأيطالية كما كان موقف البابا غير مشجع للمضي قدمًا في مشروعها التوسعي بتونس .**

(١٢) محمد بيرم التونسي ـ صفوة الاعتبار ـ جـ ٢ ـ ص ٣٥ وما بعدها .

وانظر :أحمد أمين ـ زعماء الإصلاح في العصر الحديث ـ القاهرة ـ ١٩٤٨م ـ ص ١٥٢ وما بعدها .

(١٣) د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ٣٠٠ .

(١٤) د / صلاح العقاد ـ المغرب العربى ـ الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨٥م ـ ص ١٧٨، ١٧٩ .

(١٥) Safwat : M. Tunis . cit . p . 101 .

(١٦) د / صلاح العقاد ـ المغرب العربى ـ ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

(١٧) د / صلاح العقاد ـ المغرب العربى ـ ص ١٨٦ وما بعدها .

(١٨) Dwight L . Ling :

Tunisia From Protectorate to Republic . p. 79 - 80 .

(١٩) Dwight L Ling : Tunis op . cit .p . 115 .

وانظر : حسان حقي ـ تونس العربية ـ بيروت ـ ١٥٤ .

(٢٠) د / صلاح العقاد ـ المغرب العربى ـ ص ٣٣٠ وما بعدها .

(٢١) د / صلاح العقاد ـ المغرب العربى ـ ص ٣٤١ وما بعدها .

(٢٢) Dwight L . Ling Tunisia op.cit . p. 168 .

(٢٣) د / زاهية قدورة ـ تاريخ العرب الحديث ـ ص ٤٨١ .

الفصل السادس
الجزائر

تمهيد

الجزائر كان يُطلق عليها فى القرون الوسطى اسم : المغرب الأوسط، ويرجع ظهور اسم الجزائر للمرة الأولى إلى أوائل القرن العاشر الميلادى عندما استقرت قبيلة من البربر عند قرية إيكوسيم، وبالقرب منها تقع عدة جزر فى مواجهتها، وهذه الجزر أقام عليها أحد الأمراء مرفأ كبيراً عرف باسم الجزائر إلا أن الاسم قد امتد إطلاقه ليشمل البلاد كلها فى العصر التركى، ولاسيما عندما اتخذت السلطات التركية مدينة الجزائر مقراً وعاصمة للإقليم(١).

وبالجزائر مجموعة من المدن العتيقة، والحديثة فتعد العاصمة هى ميناؤها الأول، بينما توجد مدينة تلمسان التى كانت عاصمة للإقليم فى العصور الإسلامية الأولى، ومدينة وهران التى تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، واشتهرت المدينة بالعلم والتجارة، وعلى البحر توجد أيضاً مدينة مستغانم، ومدينة المدية من المدن المشهورة، وكذلك بجاية التى بناها الناصر بن علناس بن حماد سنة ٨٤١م وأطلق عليها اسم الناصرية حيث بنى بها قصراً من أعجب قصور الدنيا هو قصر اللؤلؤة، وهناك بالجزائر مدن عديدة أخرى مثل : قسنطينة، وشرشال، ومليانة، وتاهرت، ومعسكر، وبونة، وبسكرة، وغيرها(٢).

وسكان الجزائر هم جماعة من البربر وقعوا تحت سيطرة القرطاجنين من سنة ٨٨ـ١٤٦ ق.م ثم الرومان من ١٤٦ ق.م إلى ٤٣١م فالدولة الفاندلية من ٤٣١م ـ ٥٣٤م فالدولة البيزنطية من ٥٣٤م ـ ٦٤٧م، وبعدها بزغ عليها نور الإسلام وضمها العرب المسلمون إلى دولتهم.

وتتابع حكم الجزائر مجموعة من الأسر هى : الحماديون، والموحدون، وبنى مرين، وبنو زيان إلى أن جاء الاجتياح والالتفاف الأوربى حول العالم الإسلامى ابتداءاً من المغرب العربى فالهند، فالخليج.

امتداد النفوذ العثماني للجزائر :

كان لسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الأندلس سنة ١٤٩٢هـ وفرار من تمكن من مسلمى الأندلس إلى شمال آفريقيا أحد أسباب تعقب البرتغاليين والأسبان الذين كانوا قد بدأوا عملية الالتفاف بكشوفهم الجغرافية حيث وصل البرتغاليون إلى المناطق التى كانت تصل إليها قوافل التبر الآتية من السودان الغربى وسموا هذه المنطقة نهر الذهب (ريو دى أورو Rie De ora)، ثم وصلوا إلى الرأس الأخضر، وأنشأوا الحصون والقلاع على عدة مناطق من الساحل، وتبعاً لوصية الملكة إيزابيلا بغزو بلاد المغرب وتحويل المغاربة إلى الدين النصرانى، وإبدال الهلال بالصليب[٣]، قام الأسبان بالهجوم على ميناء المرسى الكبير الذى يقع فى غرب الجزائر، واستولوا عليه سنة ١٥٠٥م، واتسعت الأعمال الأسبانية ابتداءاً من سنة ١٥٠٨م، عندما قاد الأسطول الأسبانى بدور نافارو حيث تمكن الأسبان من الاستيلاء على حجر باديس فى العام المذكور، وفى العام التالى ١٥٠٩م وقعت فى قبضتهم مدينتى وهران وبجاية، وبعد أن وقعت طرابلس بليبيا هى الأخرى فى أيديهم سنة ١٥٠٩م اضطرت موانى دلس والجزائر إلى دفع الجزية للأسبان دفعاً لشرورهم فى الوقت الذى كانت فيه الجزائر حينئذ قرية ساحلية صغيرة. وفى مواجهتها أقام الأسبان حصناً على مرتفع عال صخرى أطلقوا عليه اسم : البنيون Penion، للسيطرة من خلاله على موانىء الغرب الجزائرى.

وهنا تجد الإشارة إلى أن مملكة بنى زيان فى تلمسان قد فشلوا فى مواجهة غزو المناطق التابعة لهم لضعفهم من جهة، وبسبب الثورات الداخلية من جهة أخرى، وبلغ بهم الضعف أن اعترفوا فى صلح سنة ١٥١٢م باستيلاء الأسبان على بعض موانى غرب الجزائر[٤].

والذى يحتاج إلى التأكيد هو أن الأسبان ومعهم الأوربيون قد أصرُّوا على جعل هذا الصراع الذى شهده مطلع القرن السادس عشر صراعاً دينياً بين معتنقى الإسلام، ومعتنقى النصرانية فى الوقت الذى قبل فيه بعض المسلمين مرغمين التعميد، والدخول فى النصرانية بعد الحرق والقتل الذى استباحه الأيبيريون فيهم، إلا أن أعداداً منهم قد تمكنت من الفرار، وتبعهم الإيبيريون محاولين اللحاق بهم، والمسلمون يستصرخون المغاربة، فكان من الطبيعى أن تأخذهم النخوة الإسلامية حيث خرج رجال البحر المغربيون لاستقبال سفن الفارين لتأمين سلامتهم، والدفاع عنهم فأخذ ذلك شكل الحرب المعلنة بين المسلمين ونصارى إيبيريا (الأندلس)، فى صراع داخلى أضعف شوكتهم، وكان لابد من ظهور قيادات جديدة على السطح الإسلامى المغربى.

فى هذا الظلم الحالك ظهر بطلان مسلمان فى ميدان الجهاد الإسلامى هما: بابا عروج التركى، وأخوه خير الدين اللذان كانا على رأس عمارة بحرية من المجاهدين الأتراك يعملون كمتطوعين لإنقاذ مهاجرى الأندلس وتأمين وصولهم سالمين إلى الشاطئ الإسلامى المقابل (المغرب العربى) وكان من البديهى أن تحدث مواقع ومعارك بين الفريقين، وتقدمت وفود المسلمين إلى الزعيمين طالبة العون والنجدة، ودفع الأسبان عن بلادهم، وبالفعل حدث التعاون بين الجزائريين والقائدين تمكنا من خلاله من تكوين أسطول بحرى إسلامى حاربوا الأسبان، وطهرت البلاد الجزائرية منهم فى غضون سنوات قليلة[٥].

وكان خير الدين قد اقتسم مع أخيه عروج حكم الجزائر حيث تمكن عروج من السيطرة على ممتلكات بنى زيان بمشاركة الجزائريين، ودخل تلمسان عاصمتهم فى سنة ١٥١٧م إلا أن آخر زعماء بنى زيان استنجد

بالأسبان الذين أرسلوا له قوة بحرية قوامها ١٥ ألف مقاتل حاصرت تلمسان، ورغم تمكن عروج من المرور من خطوط الأسبانيين إلا أنهم تمكنوا من أسره، وقتله فى سنة ١٥١٨م، وخلفه فى قيادة المسلمين منفرداً أخوه خير الدين الذى لقبه الأسبان (بارباروسا) أى ذى اللحية الحمراء لقيادة الجهاد فى بلاد المغرب.

ولما آنس خير الدين ضعفاً فى قواته أمام هجمات اللأوربيين أرسل للدولة العثمانية يستنجد بها فلبت الدولة نداءه وأرسلت له سنة ١٥١٨م فى عهد سليم الأول ألفى جندى من الانكشارية، كما سمحت له بتجنيد الأهالى والمتطوعين من الأناضول، ومنذ هذا التاريخ سنة ١٥١٨م أصبحت الجزائر (المغرب الأوسط) تحت السيادة العثمانية.

وعمل خير الدين على تقوية أسطوله بسفن خفيفة سريعة الحركة أرهبت أسطول الأسبان(٦).

وفى سنة ١٥٣٥م أعد الإمبراطور شارل الخامس (الذى كان يحكم بالإضافة إلى أسبانيا من سنة ١٥١٦، الدولة الرومانية من سنة ١٥١٩م، وكذلك الأراضى المنخفضة (بلجيكا) حملة كبيرة تضم أربعمائة سفينة، وثمانية وعشرين ألف مقاتل وقادها بنفسه حيث تمكن من استعادة تونس التى كان خير الدين قد سيطر عليها، ورغم أن خير الدين لم يتمكن من استعادتها منهم إلا أنه باغتهم فى جزر البليار، واستولى منهم على ستة آلاف أسير تمكن من العودة بهم إلى قاعدته فى مدينة الجزائر.

وكان خير الدين قد قام فى سنة ١٥٢٩م (بعد أن سيطر على الإقليم الساحلى للجزائر) بالإستيلاء على قلعة البنيون المواجهة للساحل من يد الأسبانيين، ووصلها (ردمها) بالقرية المواجهة لها فقامت عليها مدينة الجزائر، واتخذها عاصمة له.

وقد منح السلطان العثمانى خير الدين لقب بيكلربك أفريقية، ثم لقب قبودان باشا، وأعطاه القيادة العامة للأساطيل العثمانية، وبدأ يعتنى بقيادة هذه الأساطيل البحرية، وترك ابنه حسّن باشا حاكماً على الجزائر.

فى هذه الأثناء انتهز شارل الخامس الفرصة، وقام على رأس جيش كبير مكون من ستة وثلاثين ألفاً من الجنود هجم به على الجزائر بمساعدة ٦٥ بارجة حربية وأكثر من أربعمائة سفينة حيث تمكنت الحملة من النزول إلى الساحل الجزائرى، ولكن الله سخر لها (مثل ما سخر لمشركى الخندق، وحملة أرناط الصليبية على المدينة المنورة) عاصفة عصفت بهم[٧] ، وأفسدت أمطارها البارود، واقتلعت الرياح خيامهم، وحطمت الكثير من السفن، وهددت الأخرى، فغرقت أعداد كبيرة من الجنود فى البحر، ولجأت الأعداد الأخرى إلى ما تبقى من السفن، مما مكن الجزائريون من إيقاع الهزيمة بالأسبان، وإبادة أعداد كبيرة منهم[٨].

فاضطر الإمبراطور إلى الفرار بجلده، وقفل راجعاً إلى أسبانيا يجر أذيال الخيبة.

وفى وهران ضيق العثمانيون الخناق على الأسبان إلا أن قائدها الكونت الكوديت استصرخ أسبانيا التى لم تستطع نجدته لظروف أسبانيا بعد تخلى شارل الخامس عن عرشه سنة ١٥٥٦ مما أطلق يد العثمانيين فى المنطقة.

ووقعت معركة فاصلة بين العثمانيين والأسبان عند مدينة مستغانم الجزائرية فى سنة ١٥٥٨م تمكن فيها العثمانيون من أسر اثنى عشر ألفاً من الأسبان، وأشعلوا النيران فى مخازن البارود التابعة لهم، وقتل فى المعركة الكونت الكوديت حاكم وهران الذى كان على رأس القوات الأسبانية[٩].

حكم البيكلربيك فى الجزائر :

وبعد استقرار الأمر للعثمانيين فى الجزائر إلى حد ما، أعقب ذلك فترة حكم فيها الولاة البيكلربك فيما بين سنتى (١٥١٨ـ١٨٧) تحت السيادة العثمانية، وكان أولهم خير الدين (بارباروسا) الذى خلفه ولده حسن باشا من سنة ١٥٤٤ وحتى سنة ١٥٥٢م، وتبعه الوالى صالح ريس الذى كان من أعوان خير الدين.

وقد شهد عهد صالح هذا مد نفوذه إلى فارس، ولكنه لم يستمر طويلاً فاتجه إلى بجاية، والمهدية حيث طرد منهما الأسبان فى سنتى ١٥٥٥، ١٥٥٦، وفى سنة ١٥٥٦م تمكن من الاستيلاء على طرابلس من يد الأسبان بمساعدة القائد البحرى طرغوث، وعين الأخير والياً عليها ـ كما أسلفنا فى الحديث عن ليبيا.

وبعد صالح ريس أعيد حسن باشا بن خير الدين مرة ثانية، إلا أن السلطان العثمانى استدعاه للاشتراك فى حصار مالطة فخلفه على ولاية الجزائر علج على الذى أثار الرعب فى قلوب الأوربيين لسنوات طويلة بسبب عنايته القصوى بالأسطول وتسليحه فقد كان علج على قبل ولايته قائداً مغواراً للأسطول العثمانى الشرقى.

حكم الولاة (الباشوات) :

استمر حكم البيكلربيك حتى سنة ١٥٨٧، وبعدها أخذ العثمانيون يرسلون باشاوات من قبلهم كولاة لحكم الأقاليم من بينها الجزائر، ولكن البلاد تدهورت فى عهدهم الذى استمر حتى سنة ١٦٥٩ عندما قرر رؤساء الجند عزل آخرهم، وتسليم السلطة للديوان الجزائرى الذى كان يتألف من هؤلاء القادة وغيرهم، واضطرت الدولة العثمانية للموافقة على ذلك مع

إرسال أحد الباشوات فترة من الزمن بشكل صورى لا يمثل شيئاً، وبعدها أخذ العثمانيون يعتمدون من يقوم الديوان باختياره حاكماً للإقليم من بين الأغوات الذى يحكم شهرين أو أكثر، فتنعم عليه الدولة بلقب باشا فيما سمى بحكم الأغوات، وهؤلاء حكموا حتى سنة ١٦٧١م.

عصر الدايات:

تسبب حكم الأغوات بالجزائر فى أن عمت الفوضى فى البلاد واستولى زعماء البحرية - الذين كان لهم الكلمة العليا فى البلاد - على السلطة ونصبوا أحدهم والياً على البلاد حاملاً لقب: «داى».

لم تستطع الدولة العثمانية أن تحرك ساكناً سوى إرسال الخلع للداى، ولقب باشا كممثل اسمى للسلطة العثمانية دون أن يكون لها فى الأمر الفعلى شئ وأصبح للداى سلطات واسعة يعاونه مجلس استشارى، ومجموعة من الوزراء يختارهم الداى بنفسه، وإلى جانبه كان من مساعديه الأغا (قائد الجيش) وشيخ الإسلام الذى يعتنى بالشؤون الدينية، والباشكاتب الذى كان يمثل الأمين العام.

أما القوة العسكرية فقد تألفت من الأوجاق (الجنود الأتراك) وزعمائهم هم الذين يؤلفون الديوان، وأصبحوا بعد فترة مصدر اضطرابات وقلاقل فى البلاد، وبعد فترة سمح بزواج الجنود من نساء بعض القبائل فظهرت طبقة من المولودين الذين انخرط بعضهم فى العسكرية، وتكونت منهم فرق سميت بـ (القولوغلى)، ويضاف إلى هؤلاء الجنود، رجال البحر الذين لعبوا دوراً هاماً فى إدخال الرعب إلى الدول الأوربية التى كانت ترتبط ببلاد الجزائر والمغرب بوجه عام.

وذلك فقد نعم رجال البحرية بمركز مرموق، وخصص نصيب كبير من الغنائم لهم الأمر الذى شجع دخول عناصر عديدة، وانخرطوا فى الاشتراك معهم، ويذكر البعض أن عدداً كبيراً من أسرى النصارى قد اعتنقوا الإسلام، واشتركوا فى البحرية هؤلاء الذين أطلق عليهم: (العلوج)[١٠].

ويبدو أن هذا التعليل قد ذكر لتبرير اعتناق العديد من النصارى الأوربيين ولاسيما أن هذه المقولة يرددها الأوربيون فى كثير من كتاباتهم.

وفى هذه الحقبة (عصر الدايات) لمعت وبرزت آسر يهودية استفادت من ازدهار ورواج التجارة فى الجزائر التى أثرى فيها عدد من التجار وظهرت فيها بيوتات تجارية كان من بينها بل وأبرزها أسرة بوشناخ (Busnach) التى جاءت إلى الجزائر فى حوالى سنة ١٧٢٣م، واستطاعت بعد عدة سنوات أن تصبح من أكثر الأسر ثراءاً فى الجزائر الأمر الذى مهد لهم الاتصال بالديانات والتقرب إليهم حتى صار لهم نفوذ سياسى ولعبوا دوراً هاماً فى تاريخ الجزائر حينئذ، وهؤلاء اليهود كانوا قد فروا مع المسلمين من الأندلس بعد اضطهاد الأسبان لهم، واحتموا بأمان المسلمين فى الجزائر[١١].

كما أن هذه الفترة (عصر الديانات) قد شهد جلاء الأسبانيين عن مدينة وهران التى استمر الصراع عليها بين الجزائر والدولة العثمانية من جهة وبين الأسبان من جهة أخرى طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر حتى أجلوا عنها سنة ١٧٩١ فى عهد حسان باشا داى الجزائر الذى أصر على تسليم مفاتيح المدينة إلى الباب العالى إظهاراً لطاعته للدولة العثمانية[١٢].

الاستعمار الفرنسى للجزائر:

تضافرت عوامل عديدة وتشابكت فيما بينها لتؤدى فى النهاية إلى احتلال الفرنسيين لدرّة المغرب العربى (الجزائر)، وسنعرض لأهم هذه العوامل فى العجالة التالية:

كانت أسباب وعوامل احتلال فرنسا للجزائر تتفاوت فيما بينها بين عوامل داخلية فى فرنسا، وأخرى خارجية عنها خاصة بالجزائر والساحة الدولية، ولكن القضية الكبرى التى تجمع بين الداخلية والخارجية هى طمع فرنسا فى خيرات الجزائر (التى ذاقت منها كثيراً منذ قيام الثورة الفرنسية). وتورط فرنسا فى حروب عديدة بأوربا وأفريقيا وآسيا. حيث جندت عدداً كبيراً من قواتها المحاربة، الأمر الذى قلل الأيدى العاملة، ولا سيما من يعملون بالزراعة، مما أوقع فرنسا فى ضائقة إقتصادية كبيرة ونقصت المؤن بشكل هدد الحياة فيها، وهدد إمدادات الجيوش كذلك بما تحتاجه.

وكان النقص الأكبر فى مجال المنتجات الزراعية وخاصة القمح بالإضافة إلى احتياجات اللحوم، والزيوت التى كانت جميعها متوفرة بالجزائر القريبة من فرنسا.

وأمام هذه الحاجة الملحة لفرنسا فى تلك المؤن بادرت الجزائر التى كانت على علاقة ودية مع فرنسا بإرسال كميات كبيرة من القمح واللحوم والجلود والزيوت لتموين جنود فرنسا على وجه الخصوص، وكذلك تموين القوات العسكرية الفرنسية على جبهات القتال كل ذلك دون أن تدفع فرنسا ثمنه.

ليس هذا فحسب ولكن داى الجزائر بالغ فى كرمه ووده تجاه فرنسا فأقرضها مبلغ ٢٥٠ ألف فرنك لشراء القمح اللازم لها من عنابة وقسطنطينة، كما سمح للسفن الفرنسية للتزود من موانى الجزائر، وعاد

الداى فأقرض حكومة الإدارة الفرنسية مبلغ مليون فرنك فى سنة ١٧٩٦م، دون أن يطلب عليها أرباحاً.

كما سمح الداى ليهوديين بالتوسط فى إمداد فرنسا بما تحتاجه من مؤن وأموال هما: بوشناخ، وبكرى.

ورغم هذه الخدمات الجليلة التى قدمتها الجزائر لفرنسا فى وقت الحاجة فقد ردت على هذه الأعمال بتصرفات غير ودية إثر حوادث بسيطة، والأغرب من ذلك أنها ماطلت فى رد الديون العديدة التى عليها للجزائر فلم تكن من عادة نابليون ـ كما يذكر ـ أن يرد أية أموال تدخل خزانته، وللتهرب من الديون الفرنسية، عمدت فرنسا إلى تهديد الجزائر إثر أية حادثة ولو بسيطة، على طريقة "اتق شر من احسنت إليه".

ولعل السبب الثانى: هو أهمية الجزائر الإستراتيجية على البحر المتوسط بالنسبة لفرنسا التى كانت تود استخدام هذا البحر، وهذا البلد (الجزائر) وسيلة للوصول إلى مصر وضرب بريطانيا فى الهند، وإضافة إلى تفكير نابليون المعروف فى تكوين امبراطورية تشتمل على أقاليم شمال أفريقية فيتمكن من تهديد الخطوط البريطانية التى كانت تسير بين الشرق والمغرب(١٣).

وثمة سبب ثالث كان يدعيه الأوربيون بشكل عام، واشترك معهم الفرنسيون فيه وجعلوه ذريعة أضافوها إلى الذرائع الأخرى، وهو ما أسموه بالقرصنة التى كانت تعنى عند المسلمين فى المغرب الجهاد ضد الأطماع الأوربية، والدفاع عن أوطانهم ودينهم وأرواحهم، وإرهاب هؤلاء الطامعين بشتى الوسائل وأقواها، فى الوقت الذى كانت فيه القرصنة "صناعة أوربية بحتة" ووضعت المسألة (القرصنة) على مائدة مؤتمر فيينا

سنة ١٨١٥م لتسوية الأوضاع الأوربية بعد انتهاء الحروب النابولينية، حيث طالب المؤتمر بوضع حد وإجراءات حازمة ضد المجاهدين المغاربة، ولا سيما الجزائريين، كما بحث القضية نفسها مؤتمر إكس لا شابيل Aix la chapelle سنة ١٨١٨م(١٤).

والسبب الرابع: وهو الذى تذرعت به فرنسا أخيراً، وهو سبب مفتعل افتعله قنصل فرنسا فى الجزائر (دوفال) Deval الذى حضر فى ليلة عيد النصر ٢٩/ ٤/ ١٨٢٧ لزيارة داى الجزائر (حسين باشا) وتقديم تهنئة للداى ضمن قناصل عديدة، وحضور كثير من وجوه الناس، وخلال الجلسة سأله الداى عن سبب تأخر فرنسا، عن دفع ديونها للجزائر متعجباً: ولماذا لم أتلق جواباً من الملك عن رسالتى المتعلقة بتصفية حساب الدين، فكان رد القنصل غريباً يشتمل على غطرسة مفتعلة مفتقدة كل ألوان الدبلوماسية وقال بعجرفة: "وهل تظن أن جلالة ملك فرنسا يتنازل لجواب داى الجزائر"

حينئذ أسقط فى يد الجميع، ووجم الحاضرون الذين فهموا أن الحادث متعمد ولكن الباشا داى الجزائر وقف وسط الديوان ودهشة الحاضرين، وقال للقنصل: أخرج يابن (. . .) وشوح بمروحة من الريش مشيراً بها إلى الباب، فادعى القنصل أن المروحة قد لمست وجهه، وخرج صاخباً محتجاً وحينئذ ثارت ثورة شارل العاشر الذى وقف فى خطاب العرش يهدد ويتوعد، ويعد الشعب الفرنسى بترضيته بأقوى صور الترضية(١٥) وكان هذا السبب المباشر هو الذى انتحلته فرنسا للهجوم على الجزائر واحتلاله.

الحملة والاحتلال:

بادرت فرنسا بعد أن وجدت مسوغاً لها بحدوث حادثة: "لطمة المروحة الشهيرة" بإرسال أربع سفن حربية فى ١٦ من يونيو سنة ١٨٢٧ يقودها الكابتن كولليه Collet يحمل إنذاراً وتهديداً للداى طالباً رد شرف فرنسا (ترضية) عما لحق بها من إهانة وفرض الحصار على البلاد، وتلخصت المطالب الفرنسية فى الآتى:

١ ـ تقديم اعتذار رسمى.

٢ ـ دفع تعويض عن الأضرار التى لحقت بالسفن الفرنسية والسفن البابوية.

٣ ـ تقديم ضمانات مستقبلية بعدم التعرض للسفن الفرنسية أو تفتيشها.

٤ ـ الموافقة على تسليح المؤسسات الفرنسية فى الجزائر دون اعتراض الداى وحكومته.

٥ ـ تتمتع فرنسا بحق الأمة الأكثر رعاية فى الجزائر.

٦ ـ عدم المطالبة بديون فرنسا للجزائر (إسقاط الديون) وكان جواب الداى على تلك المطالب: (لم يبق إلا أن يطلبوا امرأتى).

وطال أمد الحصار الذى استمر حتى سنة ١٨٣٠ فيما كانت الحكومة الفرنسية على خلاف فيما يجب عمله، وهل الظروف الدولية مواتية للاحتلال أم لا[١٦].

وكان رفض الداي طوال هذه المدة، وأخذ القضية على أنها قضية كرامة ورفضه حتى مجرد صعود وزير البحرية الجزائرية إلى السفن الفرنسية لتقديم الاعتذار إلى فرنسا، فتمادى بذلك الداى فى التحدى الذى سيطر على موقفه.

وفى ٣٠ من يناير سنة ١٨٣٠ وافق مجلس الوزراء الفرنسى فى باريس على إرسال الحملة على الجزائر فى الوقت الذى مازال فيه القادة الفرنسيون على اختلاف مشاربهم لم يكونوا قد استقر رأيهم على المدى الذى يجب أن تصل إليه الحملة بعد وصولها الجزائر، وتم تعيين الجنرال بورمونت Barmont قائداً للحملة، بينما عين الآميرال دوبرى Duppere قائداً للأسطول البحرى، وأعلنت فرنسا أن الهدف من الحملة هو الانتقام لشرفها، ووضع حد لعمليات القرصنة والاسترقاق التى تقوم بها الجزائر.

تحرك الأسطول الفرنسى فى مايو سنة ١٨٣٠ من ميناء طولون، وتلكأ بعض الوقت فى جزر البليار، ثم بدأ فى إنزال قواته فى منطقة سيدى خرج على بعد ٢٥ كم غربى مدينة الجزائر فى ١٤ من يونيو سنة ١٨٣٠، وضمت الحملة ٣٧ ألف مقاتل يساعدهم عشرون ألفاً من رجال البحرية مع مائة سفينة حربية، وعدد كبير من سفن المساعدة التى استأجرتها فرنسا.

المقاومة الجزائرية للفرنسيين:

عهد الداى بقيادة المقاومة إلى صهره (إبراهيم آغا) على الرغم من عدم عنايته بإقامة التحصينات الكافية رغم علمه المسبق بأخبار الحملة ووجهتها قبل وقت كاف، ومع ذلك فقد لقى الفرنسيون مقاومة شديدة من حامية القلعة التى لم تستطيع تحمل ضربات المدفعية، ولا سيما أن الفرنسيين تمكنوا من مخازن الزخيرة وفى النهاية اضطر الداى إلى إرسال الباشكاتب مصطفى إلى بورمونت (القائد الفرنسى) بمقترحات، ووسّط قنصل بريطانيا سانت جون لكن القائد الفرنسى أصر على أن يملى شروطه، وبالفعل قبلها الداى فى ٥ من يوليو سنة ١٨٣٠م، والشرط الهام فيها هو تسليم حصن القصبة، وجميع حصون مدينة الجزائر وأبوابها

https://alborj.blogspot.com

للفرنسيين وتم نزع سلاح الانكشارية الذين أبعدوا إلى أزمير، أما الداى فقد غادر الجزائر بأسرته إلى نابلى، وانتقل بعد ذلك إلى الإسكندرية التى ظل بها حتى توفى سنة ١٨٣٨م تاركاً الجزائر تتعرض للنهب والسلب[١٧].

وقد وقع عبء المقاومة كلها على الشعب الجزائرى الذى بذل أقصى ما عنده رغم ضعف إمكاناته الحربية فقاوم بضراوة الفرنسيين الذين وجدوا صعوبة شديدة فى السيطرة على الداخل الجزائرى، وفشلوا عدة مرات فى الاحتفاظ بوهران وعنابة، إلا أن المقاومة الحقيقية التى عانى منها الفرنسيون تمثلت فى الدور الكبير الذى لعبه وقام به الأمير عبد القادر بن الشيخ محيى الدين شيخ الطريقة القادرية الذى قاد المقاومة فى غرب الجزائر.

وكان عُمْرعبد القادر حينئذ أربعاً وعشرين عاماً، فاتخذ من مدينة (المعسكر) مركزاً ومقراً قاد منه عمليات المقاومة التى كبدت الفرنسيين خسائر فادحة فى أرواحهم وعتادهم[١٨].

واستمر الأمير عبد القادر (الذى حرم على الفرنسيين دخول بعض المناطق الجزائرية) فى جهاده واضطرهم إلى عقد المعاهدات معه تلك المعاهدات التى نكسوها فى كل مرة حتى أحيط به، واضطر لإلقاء السلاح مستسلماً فى سنة ١٨٤٧، وتم نفيه إلى فرنسا حتى أطلق سراحه نابليون الثالث سنة ١٨٥٣ فاختار تركيا، ومنها إلى دمشق التى عاش فيها حتى وافته المنية سنة ١٨٨٣م.

ومع ذلك فقد ظلت المقاومة مشتعلة جذوتها فى ثورات أهلية عنيفة أهمها:

١ - ثورة أولاد (سيدى الشيخ، وثورة الأوراس، والزيبان، وزواغة) فى الفترة من ١٨٤٨-١٨٥٠م.

٢ ـ ثورة القبائل سنة ١٨٥١م.

٣ ـ ثورة واحات الجنوب بزعامة محمد بن عبدالله سنة ١٨٥٢

٤ ـ ثورة جبال البابور سنة ١٨٥٦م.

٥ ـ ثورة لالا فاطمة فى جبال القبائل سنة ١٨٥٧.

٦ ـ ثورة أوراس سنة ١٨٥٨م.

٧ ـ ثورة الشعبانية سنة ١٨٦١م.

٨ ـ ثورة أولاد (سيدى الشيخ) سنة ١٨٦٤م.

٩ ـ الثورة الكبرى التى أعقبت الثورات السابقة وهى ثورة محمد المقرانى سنة ١٨٧١م[١٩].

وهى ثورة شعبية كانت رد فعل عنيف للاحتلال الفرنسى وقسوته على البلاد فقد ظهرت عوامل دولية شجعت الجزائريين على طلب إنهاء الاحتلال بعد حروب فرنسا وألمانيا التى انتهت بهزيمة الفرنسيين، واستسلامهم أمام ألمانيا مما سبب لها ضياع هيبتها، وهبوط مركزها الدولى، فى الوقت الذى حاول فيه الفرنسيون تجنيد الجزائريين للزج بهم فى هذه الحرب التى ليس لهم فيها ناقة ولا جمل، كما أن فرنسا أقدمت على منح يهود الجزائر الجنسية الفرنسية الأمر الذى قوى من نفوذهم وسطوتهم داخل المجتمع العربى الإسلامى، مما ألهب الثورة، وجعلها تشمل كل أنحاء الجزائر طوال سنة ١٨٧١م ما عدا منطقة وهران.

وزعيم الثورة **محمد المقرانى** لم يكن من فقراء الشعب، بل كان من أغناهم، ومن وجهائهم كذلك فجاد بكل ما يملك فى سبيلها حتى استشهد بعد شهرين من المقاومة، وخلفه فى قيادة الثورة الشعبية أخوه بو مزراك المقرانى حتى تمكنت فرنسا من القضاء عليها فى يناير سنة ١٨٧٢م[٢٠].

وتعد هذه آخر ثورة كبيرة قبل الثـورة الكبرى - التى سيأتى الحديث عنها حيث بدأ الجهاد السياسى.

هجرة الفرنسيين للجزائر:

شجعت فرنسا مواطنيها على الهـجرة إلى الجزائر فقد كانت تعتبرها امتداداً لفـرنسا عبر البحـار، حيث تدفق الفرنسيـون والأوربيون فرادى وجماعات، فبلغ عدد المهاجرين بعد سنة واحدة من الاحتلال ثلاثة آلاف مهاجر، ووصل عددهم فى سنة ١٨٣٧م أى بعـد مرور سبعة أعوام إلى ١٧ ألف نسمة وفى سنة ١٨٤٨م نقل الفرنسيون العمال الجمهوريين الذين انهزموا إلى الجزائر، وكانت أعدادهم كبيرة[٢١] وعندما استسلمت فرنسا لألمانيا بعد حربهما على الألزاس واللورين تدفق المـهاجرون بأعداد كبيرة إلى الجزائر حتى بلغ عددهم سنة ١٨٩١م أكـثر من نصف مليون فرنسـى وأوربى، وقفز الرقم سنة ١٩١١م إلى ثلاثة أرباع المليون، ووصل المليون سنة ١٩٥٤م.

وكانت الأرض الجـزائرية توزع على حثالات الفرنسـيين العاطلين مجـاناً هذه الأرض التى كان يعمل عليـها ويزرعهـا شهداء المقـاومة الجزائرية[٢٢].

الجزائر فى الحرب العالمية الأولى:

عمد الفرنسيون إلى تجنيد الجزائريين على أساس فردى فكونت منهم فرقة عرفت بفرقة القناصة التى اشتـركت فى كثير من الحروب الفرنسية، وفى سنة ١٩١٢ عمدوا إلى فرض الخدمة العسكرية، أو البدل المالى على كل الجزائريين، ونظراً لحالة الفقر، وغالبيتهم معدمون فقد تحولت الخدمة العسكرية إلى تجنيد إجبارى على الجزائريين.

ويذكر البعض أن فرنسا قد جندت أكثر من أربعمائة ألف لمحاربة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى، مات منهم أكثر من ثمانين ألفاً. كما أعدت فرنسا ثمانين ألفاً استخدمتهم فى المعامل الحربية الفرنسية، وكذلك فى المعامل المدنية(٢٣).

كما عمل بعضهم فى فروع أخرى فى فرنسا، وقد عاد من عاد من كل هؤلاء بعد انتهاء الحرب وقد شعر بقيمته وقيمة بلاده التى اغتصبها المستعمر، واكتسب خبرة جديدة، وعلم فنون العسكرية. وبدأ البعض منهم يفكر فى الأمور السياسية والصحافة التى بدأت تنتشر بعد الحرب.

وكان أول من نزل إلى ميدان السياسة والصحافة هو الأمير خالد الهاشمى ابن الأمير محيى الدين، فهو حفيد الأمير عبد القادر الجزائرى، وكان خالد ضابطاً فى الجيش الفرنسى، وشارك فى الحرب ضد أعداء فرنسا، وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى قاد وفداً إلى فرساى، وأخذ يطالب بتطبيق مبادئ الرئيس الأمريكى ويلسون على الجزائر، وتقرير مصيرها بأيدى أبنائها، دون أن يجد لمطالبه صدى.

حركات الكفاح الوطنى بعد الحرب الأولى:

ويعد تحرك خالد الهاشمى بداية حركة الكفاح القومى ومقدمة للحركات السياسية الجزائرية، وما أن عاد خالد من رحلته إلى فرساى بفرنسا حتى أنشأ هيئة سياسية أطلق عليها: «وحدة النواب المسلمين»، وأقام لها جريدة حرة هى جريدة الأقدام مطالباً فيها بإصلاحات عديدة، مما جلب عليه عداوة الفرنسيين فنفوه خارج البلاد بعد أن اتهموه بالخيانة.

وتبعته حركات سياسية بعضها نهج النهج نفسه، ولا سيما فى الثلاثينات من القرن العشرين حيث ظهرت واتضحت وجهة التيارات

السياسية التى كان بعضها فى أقصى اليمين وهم رجال الصوفية. وبعدهم اليمين المعتدل وأغلبهم من المثقفين الجزائريين، وأصحاب اتجاه الوسط الذين يعتزون بانتمائهم الإسلامى وحفاظهم على العربية، وهم أيضاً من العلماء الذين أثرت فيهم تعاليم الشيخ / محمد عبده، والسيد / رشيد رضا، وهؤلاء كانوا يرفضون الجنسية الفرنسية ويحافظون على تراثهم العربى الإسلامى، ونظموا أنفسهم فى جمعية العلماء المسلمين فأنشأوا لهم جريدة الشهاب والبصاير، أما اليسار فشملتهم جمعية : نجم شمال أفريقية، وأغلبهم من العمال الذين عملوا فى فرنسا وهذه الجمعية قد انفردت بمطالبها التى حاربت من آجلها لتوحيد بلاد المغرب: تونس والمغرب مع بلادهم الجزائر. وأخيراً فى أقصى اليسار ظهر الحزب الشيوعى الجزائرى(٢٤) وقد استمر الصراع بين هذه الجبهات الجزائرية فبعضها أيد الفرنسيين مثل الصوفية، والبعض الآخر قاوم بشتى السبل السياسية والدبلوماسية والصحافة.. الخ. وكان موقف فرنسا الكبت والاضطهاد لكل من يخالف سياستها كما أودعت السجن كل من طالبها بالحرية الجزائرية ولا سيما قبل الحرب العالمية الثانية التى ازدادت فى أثناء الحرب.

الحرب العالمية الثانية وأثرها على الجزائر :

نشبت الحرب الثانية فى سنة ١٩٣٩م، وسارعت الحكومة الفرنسية بتعطيل نشاط الأحزاب والهيئات السياسية(٢٥)، فقد سقطت فرنسا صريعة أمام قوات ألمانيا بعد عدة أسابيع، واستسلم أكثر من مليون ونصف المليون من رجالها رغم وقوفهم خلف حصن واستحكامات خط ما جينو. واضطرت حكومة فيشى الفرنسية لقبول مطالب الألمان، وسلمت أراضيها للألمان، إلا أنها رغم كل ذلك احتفظت بالأحكام والقوانين العرفية، وحالة الطوارئ فى الجزائر، وظلت مصرة على وضع زعماء الحركات

السياسية الجزائرية فى السجن، وعندما نزلت القوات الأمريكية على أرض الجزائر فى ٨ من نوفمبر سنة ١٩٤٢م حاول الجزائريون شرح قضيتهم ومحاولة الاستفادة منهم، ولكن الأمريكان كانوا قد صمموا على عدم إضعاف فرنسا لتواصل العمل بجانب الحلفاء.

ولما لم يجد الزعماء الوطنيون صدى اجتمعوا فى ٣ فبراير سنة ١٩٤٣، وتفاوضوا فى كيفية الحصول على حريتهم واستقلالهم، وقرروا نشر بيان تقدموا به لأبناء الجزائر، والفرنسيين والحلفاء، يوضحون فيه آمالهم لبلادهم، والطريق الذى أرادوه لهذا البلد، وهو إعلان الجمهورية الجزائرية المستقلة.

اعتبر هذا البيان نقطة تحول تاريخى فى تطور الحركة السياسية الجزائرية، ولاسيما أن أغلب رجال الأحزاب والجمعيات السياسية المختلفة قد انضمت إليه، وكونوا هيئة أطلق عليها : «أنصار البيان والحرية» وبدأت فرنسا تواجه القوى الوطنية الجزائرية متكتلة، وعلى قلب رجل واحد، بعد أن كانت فرنسا تلعب فى المياه العكرة مستغلة الخلاف بين الجهات. وسادت على طريقة : «فرق تسد الاستعمارية».

وعلى أثر مظاهرة ٨ مايو سنة ١٩٤٥م التى طالب فيها الجزائريون بالحرية فتح الفرنسيون النيران على المتظاهرين فى مجزرة بشرية رهيبة صاحبتها عملية تدمير للقرى على رأس أهلها بالطائرات والمصفحات، وفى المدن كانت جماعات الميليشيا الأوربيين يسرقون المثقفين الجزائريين إلى مناطق يحفرون فيها قبورهم بأيديهم، ثم يأمرون كل فوج منهم بدفن الفوج السابق عليه، هذا عدا الوطنيين الذين عدُوا بالآلاف زجت بهم السلطات الفرنسية فى غياهب السجون.

وأسرعت فرنسا إلى حل جماعة أنصار البيان، وحزب الشعب الجزائرى، وظل المعتقلون فى سجونهم حتى ١٦ مارس سنة ١٩٤٦م، وما أن خرجوا منها حتى بادروا بتنظيم صفوفهم فى مواجهة المستعمرين الفرنسيين[٢٦].

الثورة الجزائرية الكبرى سنة ١٩٥٤م:

وكانت المواجهة الشاملة قد تمت بالثورة الكبرى الجزائرية فى غرة نوفمبر سنة ١٩٥٤ فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حيث نظمت كل الأطراف، وأعدت الأسلحة، والتدريب عليها باشتراك الأمة الجزائرية جميعها فى يوم واحد تحت زعامة جبهة التحرير الوطنى بعد أن حلت الأحزاب السياسية وانضمت إلى الجبهة، ولم يبق خارجها سوى جبهة (جماعة مصالى الحاج) الذين أنشأوا جيشاً آخر باسم الحركة الوطنية الجزائرية.

وبذلك انفجرت نيران الثورة فى كل مكان بالجزائر نالت من الفرنسيين فى كل مكان، وألقيت عليهم القذائف والمتفجرات (التى صنعت محلياً) على مراكز السلطة، والمنشآت العامة، وثكنات الجندرمة فأحدث ذلك رعباً شديداً فى نفوس الفرنسيين[٢٧].

ولذلك فقد بلغ الجيش الفرنسى ما يقرب من نصف مليون جندى فرنسى لم يستطع القضاء على الثورة، فاتجه إلى كهربة أسلاك على الحدود مع تونس، وعلى الحدود مع المغرب، ثم شاركت فرنسا فى مؤامرة السويس سنة ١٩٥٦ على مصر للقضاء على النظام القائم فيها حتى لا يقوى على مساندة ثوار الجزائر.

ومع ذلك فلم تفلح كل هذه الإجـراءات فى إضعـاف الثورة، بل زادت من اشتعالها حيث اضطرت جبهة التحرير الوطنية الجزائرية إلى نقل الحرب إلى فرنسا نفسـها، وتمكن الفـدائيون من النيل من مخازن البترول بالقرب من مرسيليا فأشعلوا فيه النيران، وأشعلوها كذلك فى بلاد فرنسية ففجـرتها، ليس هذا فقط بل نال الثوار الفدائـيون من العديد من نقط البوليس والتفتيش، وبعض المواقع العسكرية فى فرنسا نفسها. الأمر الذى كبد الفرنسيين خسائر فادحة.

واضطرت هيئة التحرير الوطنيـة الجزائرية إلى إعلان تكوين حكومة جزائرية مؤقـتة لمواصلة الحرب، وإدارة شؤون الجـزائر فسارعت الدول العربية، والأفريقية والآسيـوية، وبعض الدول الصديقة للعرب بالاعتراف بهذه الحكومة المؤقـتة، وتأييدها وحينئـذ اضطرت فرنسا فى ١٩٥٧ إلى تقديم مقترحات لحل القضية الجزائرية مستبعدة الاستقلال وظلت مقترحاتها وتحركاتها بعـيداً عن قضية الاستقـلال حتى جاء ديجول إلى الحكم سنة ١٩٥٨م بعد سقوط الجمهورية الفرنسـية الرابعة. وكان الجميع فى فرنسا يعقد عليـه الأمل فى إنقاذ الموقف فى الجزائر، ولكنه فاجـأ الجميع فى خطابه الشهـير (١٦ سبتمـبر ١٩٥٩م) الذى عرض فيـه خيارات ثلاث للجزائر وهى: الاندماج الفرنسـى أو الاستـقلال التام، أو الاستقلال مع الارتباط بفرنسا.

كان هذا الإعلان كارثة وفـاجعة كبيرة للمسـتوطنين الفرنسيين فى الجزائر الذين ثاروا فى أوائل سنة ١٩٦٠م وأعلنوا العصيان العسكرى الذى قاده بعض جنرالات فرنسا بزعامة شال وسالان وآخرون إلا أن ديجول نجح فى القضاء على هذا العصيان، وساعدت شخصية ديجول على نجاح فكرة التفاوض مع الثورة الجزائرية وعقد الصلح بعد ذلك.

وفى أوائل سنة ١٩٦٢ أجريت مفاوضات بين الجانبين الفرنسى والجزائرى أدى إلى اتفاق بينهما على وقف القتال، وإطلاق سراح الزعماء الوطنيين المتعلقين، وحق الجزائر فى الاستقلال وتقرير المصير على أن تتولى السلطة هيئة مكونة من ١٢ من وجوه الجزائر يحكمون خلال فترة انتقالية، ثم أجرى استفتاء كان نتيجته الرغبة الأكيدة فى الاستقلال.

وبالفعل أعلن استقلال الجزائر فى أول يونيو سنة ١٩٦٢م، واعترفت بها الدول دولة مستقلة ذات سيادة[٢٨].

الهوامش

(١) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ـ تاريخ الجزائر العام ـ جـ ١ ـ بيروت ـ ١٩٦٥م ـ ص ٣٥ .

(٢) محمد بن عبد القادر الجزائرلي ـ تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ـ بيروت ـ ١٩٦٤م ص ١٩ .

(٣) د / جلال يحي ـ المغرب الكبير ـ جـ ٣ ـ ص ١١ ، ١٣ .

(٤) وثائق أسبانية منشورة : ocuments indits sur L'histoire de Lac- Dcupotion Espagnole en Afrique . 1506 - 1584 .

(٥) أحمد توفيق المدني ـ هذه مسلمي الجزائر ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ ـ ص ٦٩.

(٦) د / جلال يحي ـ المغرب الكبير ـ جـ ٢٣ ـ ص ٢٤ .

(٧) د / جلال يحي ـ المغرب الكبير ـ جـ ٣ ـ ص ٢٥ .

و : د / محمد شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ٨٦ ، ٨٨ .

(٨) د / عبد العزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ـ جـ ٢ ـ ص ٩١٨ ، ٩١٩ .

(٩) **إحسان حقي ـ الجزائر العربية ـ ص ٥٣ .**

وانظر : د / شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ٨٨ ، ٨٩ .

(١٠) أنظر في ذلك : Julien Charles Andre :
Histoire Del' Algerie Cantemparaime Paris, 1964 . p. H.12 .

(١١) د / زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٤٩٠ .

(١٢) د / عبد العزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ـ جـ ٢ ـ ص ٩٣٢ ، ٩٣٣ .

(١٣) Julien Charles :Histore de Algerie op .vit .p 28 .

وانظر في تفاصيل الأسباب في كتاب : د / جلال يحي ـ المغرب الكبير ـ جـ ٣ ـ ص ٨٦ وما بعدها .

(١٤) Julin, op . cit . p . 30 .

(١٥) **أحمد توفيق مدني ـ هذه هي الجزائر ـ ص ٧٧ ، ٧٨ .**

وانظر : د/ زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٤٩٣ .

(١٦) Julien Histoire del Al Gerie , op . cit ,p. 34.

وانظر : د / صلاح العقاد ــ المغرب العربي ــ ص ٨٢ .

(١٧) د / صلاح العقاد ــ المغرب العربي ــ ص ٩٢ ، ٩٣ .

وانظر : د / شوقي الجمل ــ المغرب العربي ـ ص ٢٦٠ وما بعدها .

(١٨) انظر تفاصيل المقاومة في كتاب :

محمد عبد القادر الجزائري ــ تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر جـ ١ ــ الاسكندرية ــ ١٩٠٣ ــ ص ٩٦ وما بعدها، و جـ ٢ .

وانظر : أحمد توفيق مدني ــ هذه هي الجزائر ــ ص ٧٩ وما بعدها .

Julien - op - cit .p . 160 - 488 .

(١٩) د / زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦ .

(٢٠) د / جلال يحي ــ المغرب الكبير ــ جـ ٣ ــ ص ١٩٧ وما بعدها .

(٢١) د / صلاح العقاد ــ المغرب العربى ــ ص ١٨٦ وما بعدها .

(٢٢) David Gordon : the Passing of franch Algeria london. 1966 . p.15 .

(٢٣) أحمد توفيق المدني ــ هذه هي الجزائر ــ ص ٩٧ وما بعدها .

(٢٤) أحمد توفيق ــ هذه هي الجزائر ــ ص ١٦١ ، ١٦٢ .

وانظر : د / جلال يحي ــ المغرب الكبير ــ جـ ٤ ــ ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٢٥) د / جلال يحي ــ المغرب الكبير ــ جـ ٤ ــ ص ٢١٤ وما بعدها .

(٢٦) د / زاهية قدورة ــ تاريخ العرب ــ ص ٥١٥ .

(٢٧) د / جلال يحي ــ المغرب الكبير ــ جـ ٤ ــ ص ٢٢٩ وما بعدها .

وانظر أحمد توفيق المدني ــ هذه هي الجزائر ــ ص ١٧٤ وما بعدها .

(٢٨) أحمد توفيق المدني ــ هذه هي الجزائر ــ ص ١٩٢ وما بعدها .

وانظر : محمود شيت خطاب ــ المغرب العربي ــ ص ٢٥١ .

((٢٩) د / جلال يحي ــ المغرب الكبير ــ جـ ٤ ــ ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

انظر : د/ زاهية قدورة ــ تاريخ العرب ــ ص ٥٢١ وما بعدها .

David Gordon ` the Passing of French, Al geria , op .cit .p. 71 .

الفصل السابع

المغرب الأقصى

تمهـــيد

المغرب هو اللفظ المختصر الذى أطلق على منطقة المغرب الأقصى، وكان يطلق عليه من قبل: مراكش، وموقعه أقصى الغرب من الشمال الإفريقى الذى يحده من الغرب المحيط الأطلسى، ومن الشمال البحر المتوسط، ومن الجنوب الصحراء الأسبانية، وتحيط به الجزائر من الشرق والجنوب أيضاً، ويعد المغرب أقرب نقطة تصل بين أفريقيا وأوربا عن طريق مضيق جبل طارق كما أن المغرب من طرفه قريب من جزيرة صقلية.

ولذلك فموقع المغرب استراتيجى بسبب قربه من أوربا، والتقاء القارتين أدى إلى نشاط تجارى وسياسى حيث دخل العرب شبه الجزيرة الأيبرية وكونوا الأندلس، وعن طريق المغرب أيضاً خرجوا منه.

ويمتاز المغرب بخصوبة تربته وهطول الأمطار فيه بكثرة، واشتماله على سلسلة جبال أطلس العالية الارتفاع، وبه أنهار كثيرة أهمها : نهر أم الربيع وطوله ٥٠٠كم٢، ونهر وادى درعة، ونهر أبى رقراق، ونهر تانسفيت، وغيرها.

وبالمغرب مدن عتيقة وهامة منها : مكناس، وفاس، ومراكش، (جوهرة الجنوب)، والقصر الكبير، ووجدة، ووزان، والرباط العاصمة السياسية الساحلية، وسلا، وأزمور، والصويرة، وأصلية، ومليلة، وسبته، ومن الموانى الهامة : الدار البيضاء، وأغادير وطنجة على مضيق جبل طارق(١).

نشأت فى بلاد المغرب دول عديدة تنازعت فيما بينها السلطة والنفوذ إبتدأها إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب مؤسس دولة الأدارسة الذى وحد بلاد المغرب الأقصى (بعد عبث الخوارج الذين ثاروا على عامل الخليفة) وبعد أن فتح تلمسان فى المغرب الأوسط (الجزائر) سنة ١٧٥هـ / ٧٩١م توفى سنة ١٧٧ / ٧٩٣م حيث خلفه

إدريس الثانى الذى بنى مدينة فاس المغربية وجعلها عاصمة ومقراً لحكمه فى سنة ١٩٢هـ ٨٠٧م، ومازالت تتوسع ويقصدها الناس حتى صارت حاضرة المغرب كله.

وفى سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م شرعت فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهرى فى بناء جامع القرويين الذى غدا منارة إسلامية تنشر الثقافة وتحفظ التراث العربى وأصبح جامعة المغرب الإسلامية، ولاسيما بعد نكبة : الفردوس المفقود (الأندلسى).

ولم تنته دولة الأدارسة إلا فى سنة ٣٠٥هـ / ٩١٧م بعد ظهور الدولة العبيدية فى تونس، وتمكنها من ضم المغرب إليها ومن سنة ٣٠٥هـ إلى سنة ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م أصبح الأمر سجال بين الفاطميين فى تونس، والأمويين فى الأندلس، وبعد انقراض الدولة الأخيرة وقيام ملوك الطوائف على أكتافها، ظهر فى المغرب دولة مغراوة التى امتد حكمها من ٤٢٨هـ / إلى سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م.

فقد تغلبت عليها دولة المرابطين التى نشأت من رباط صنهاجى تعلموا فيه أصول الدين، وأصبح نواة دينية عسكرية خرجت يوسف بن تاشفين الذى استولى على فاس، وأسس مدينة مراكش، وجعلها حاضرة وعاصمة لملكه سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م، ثم استولى على تلمسان عاصمة المغرب الأوسط (الجزائر)، ودان له المغربين الأقصى والأوسط سنة ٤٧٥هـ / ١٠٨٢م.

وكان نصارى الأندلس قد أخذوا فى مقاتلة المسلمين فى عهد يوسف بالمغرب، واستنجد به أهل الأندلس فلبى ندائهم فى سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م، واستطاع أن يخمد شرورهم حتى عاش الإسلام بعده أربعة قرون قبل أن يتحول الأندلس إلى : (الفردوس المفقود).

كما تمكن يوسف بن تاشفين فى ٤٨٤هـ / ١٠٩١م من إخضاع ملوك الطوائف لحكمه وتوج حياته الكريمة بانضوائه تحت لواء الخلافة العباسية، وكرم عندما خوطب بلقب : أمير المسلمين حتى توفى سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٥م وظلت دولته فى عز ومنعه حتى نشبت المعارك بين المرابطين، والموحدين بسبب ثورة المهدى بن تومرت والحروب الخطيرة التى قامت بينهما ابتداء من سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م وانتهى الأمر بسقوط مراكش ودولة المرابطين فى يد الموحدين سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م.

عاشت دولة الموحدين فى المغرب فيما بين سنتى ٥٤١هـ / ١١٤٦م إلى سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م حيث قطعت تبعية بلاد المغرب للخليفة العباسى، وتسمى زعماؤهم بأمير المؤمنين، وتمكنوا أيضاً من السيطرة على الأندلس، وهزيمة النصارى الذين كانوا يحصلون على عطف ومباركة البابا لاستخلاص الأندلس من المسلمين.

وتتعاقب سنة الله فى خلقه عندما يتمكن ابن عبد الحق من القضاء على دولة الموحدين، ويملك المغرب فى سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م حيث تبدأ دولة أخرى فى حكم المغرب قرابة ثلاثة قرون وحتى سنة ٩٦١هـ / ١٥٥٣م وهى دولة بنى مرين(٢).

الأطماع الإيبرية (أسبانيا والبرتغال) فى المغرب:

استهل القرن الخامس عشر أحداثه بمحاولات أسبانية (قشتالة) للسيطرة على مناطق مغربية حيث هاجم الأسبان مدينة تطوان سنة ١٤٠١م واحتلوها ردحاً من الزمن، وفى سنة ١٤١٥م تمكنت البرتغال من احتلال مدينة سبته (الذى استمر احتلالهم لها برتغاليون وأسبان) حتى التاريخ المعاصر.

وبعدها اتجهوا إلى طنجة على ساحل البحر الأبيض المتوسط حيث احتلها البرتغاليون سنة ١٤٣٨م فى محاولة منهم لشطر المغرب العربى الإسلامى شطرين والتمكن من التهامه(٣)، كما استولى الأوربيون بعد ذلك

على مجموعة أخرى من الموانىء المغربية مثل أزمور، والقصير الصغير، وأصلية(٤).

وقد تلى دولة بنى مرين بعد ضعفهم تمكن فرع منهم وهو بنى وطاس من السلطة إلا أن بنى وطاس هؤلاء كانوا يحملون معهم عوامل الضعف لهم ولغيرهم حيث تكالب أفرادهم على السلطة فتنازعوا، وأضعفهم الشقاق فيما بينهم.

ولذلك فقد زادت أطماع البرتغاليين والأسبان فيما تحت أيديهم من بلدان وموانئ كلها عامرة، حتى قيض الله دولة أخرى مجاهدة ظهرت على المسرح المغربى هى دولة السعديين ابتداء من سنة ٩٦١هـ / ١٥٥٣م، وهى دولة عربية علوية، وكان عملها من البداية تنظيم الجهاد لطرد الأجانب الذين احتلوا الموانى وبعض البلاد المغربية، واتحد معهم البربر ونصروهم على بنى جلدتهم من بنى وطاس (الذين هم من البربر).

وكانت بداية السعديين هو أبا عبد الله محمد القائم بأمر الله الذى كان مقيماً بمدينة درعة، فبايعه الفقهاء، وشيوخ القبائل حيث تزعم قبائل السوس وجاهد بهم إلى أن توفى سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وخلف ولدين أكبرهما أبو العباس أحمد الأعرج الذى بايعه الناس، وتمكن من الانتصار على البرتغاليين فى مواقع عديدة ثم تمكن من دخول مراكش سنة ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م.

وقد اضطر أحمد الأعرج فى سنة ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م إلى الاتفاق مع الوطاسيين على اقتسام المغرب على أن يكون للأشراف السعديين من تادلة إلى السوس، وللوطاسيين من تادلة إلى حدود المغرب الأوسط (الجزائر) إلى أن تمكن المهدى (أبو عبد الله محمد الشيخ) أخو أحمد الأعرج فى سنة ٩٦١هـ / ١٥٥٤م من القضاء على الوطاسيين، ودخول فاس (عاصمتهم) ولكنه قتل فى سنة ٩٦٤هـ / ١٥٥٧م بعد أن استرد

العديد من موانى المغرب من يد البرتغاليين الذين لم يبق لهم سوى طنجة وسبته وهزغان فقط(٥).

وفى أيام الدولة السعدية زمن عبد الله بن محمد المهدى حدثت معارك كبيرة مع البرتغاليين كان أشهرها فى التاريخ معركة: «وادى المخازن» التى اشترك فيها ثلاثة من الملوك، وقتلوا فيها حيث كان على رأس جيش البرتغاليين ملكهم سباستيان، يعاونه المتوكل الذى هرب مستنجداً بالبرتغاليين، وكان الثالث هو عبد الملك أمير السعديين.

ففى سنة ١٥٧٨ التقى جيش البرتغاليين مع جيش السعديين عند وادى المخازن (شمال فارس) حيث لقى البرتغاليون هزيمة شنيعة فقدوا فيها ٢٦ ألف قتيل، وسقط الملوك الثلاثة صرعى وقد آل الحكم بعد عبد الملك إلى أخيه أحمد الذى تلقب بالمنصور(٦).

وربما كان من نتيجة معركة وادى المخازن تحطم قوة البرتغاليين، مما سهل على فيليب الثانى ملك أسبانيا بعد عامين سنة ١٥٨٠م أن يضم البرتغال إلى بلاده وظل قابضاً عليه ستين عاماً.

وقد ازدهرت بلاد المغرب وتوسعت فى عهد المنصور الذى استطاع أن يقضى على مملكة صنغهاى ببلاد السودان بعد أن أرسل عليها جيشاً كبيراً تمكن من الحصول على غنائم كثيرة فجاءت الأحمال مليئة بالتبر والذهب واستغلها أحمد المنصور (الذى لقب بالذهبى) فى تحصين بلاده، وتقوية جيشه، ومع ذلك فقد أنهكت هذه الموارد بلاد السودان.

وأدى سقوط مملكة صنغهاى إلى قيام ممالك صغيرة وضعيفة انشغلت بالتناحر فيما بينها، وسادت الفوضى فى هذا الجزء من الإقليم السودانى بعد تراخى قبضة المغرب.

ومع ذلك فقد ازدادت هيبة المغرب فى نظر الأوربيين، وبات الجميع يخطب وده، ولا سيما انجلترا وهولندا، ويمكن القول أن المغرب فى عهد

المنصور قد أخذ شكل الإقليم المتميز عن جيرانه فى المنطقة، واستقل بشخصيته فى هذا العهد الذهبى[٧].

وبعد المنصور الذى توفى سنة ١٦٠٣م والعهد الذهبى تنازع أبناء الأسرة السعدية على وراثة السلطة والحكم.

وأدى ذلك إلى انقسام الدولة إلى حكومتين إحداهما فى فاس والأخرى فى مراكش واستنجد البعض منهم بالأوربيين، وقام البعض الآخر بإنشاء سلطات مستقلة فى بعض المقاطعات، وأهم هذه القوى : جمهورية سلا التى كانت تتحكم فى مقع استراتيجى يطل على الملاحة بين أسبانيا والعالم الجديد، كما كان كذلك بين أوربا والمحيط بالإضافة إلى جبل طارق، وساعدها على الازدهار هجرة مسلمى الأندلس إليها سنة ١٦١٠م وعندما زاد عدد السكان بنوا مدينة جديدة كانت نواة الاتساع وازدهار هى مدينة الرباط.

إلا أن هذا الاختلاف (الانفصال)، وتعدد مناطق النفوذ والتناحر بينها قد أدى إلى زوال حكم وسلطة السعديين وانتقلت السلطة من بعدهم إلى الأشراف الحسينيين (العلويين) الذين يحكمون المغرب حتى العصر الحاضر[٨].

دولة العلويين فى المغرب :

تعود أصولهم إلى الحجاز، من سلالة الحسن بن على فهم أشراف انتقلوا إلى المغرب فى القرن السابع الهجرى، واستقروا فى واحة تافلات فى الجنوب الشرقى، ولم يكن هناك وفاق بينهم وبين الطرق الصوفية العديدة التى كانت منتشرة فى المغرب حينئذ.

وقد طلب منهم أهل تافيلات تدبير أمورهم وتخليصهم من حكم وسيطرة الطرق الصوفية فأجابهم محمد الشريف، لا أنه اصطدم بحكام الجزائر، وفشل فى تحقيق نتيجة إيجابية وخلفه أخوه الرشيد الذى كان ذو

كفاءة فاستولى على تافلات، وبدأ التوسع متفقاً مع العثمانيين على الحدود الفاصلة بين الجزائر ومراكش ثم بسط سلطانه على مراكش، وامتد إلى الريف، والرشيد يعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقى للدولة الشريفية العلوية فى المغرب.

وخلفه أخوه اسماعيل الذى سار على نهجه وفاقه فى أعماله حيث اعتبره المؤرخون من أعظم السلاطين فقد دعّم البلاد بجيش قوى نظامى، فرفعت أعماله هيبة مراكش أمام العالم بعد أن تمكن من تحرير العديد من الجيوب التى كان يسيطر عليها الأوربيون على السواحل، وفى معاملاته مع الانجليز والعثمانيين ظهر موقفه القوى، والتعامل بالندية.

كما كان على الصعيد الداخلى والمحلى قد اشتهر بالحزم والقوة، والبطش أحياناً، ولا سيما مع من كانوا يهددون سلطانه من أفراد أسرته.

وقد امتد حكم إسماعيل ما يقرب من نصف قرن من سنة ١٦٧٢م إلى ١٧٢٧م وخلفه مجموعة ضعيفة من الحكام زعزعت عرش البلاد حتى تولى حكمها محمد ابن عبد الله سنة ١٧٥٧م الذى نعمت البلاد فى عهده بشئ من الاستقرار كما نشطت التجارة كذلك بشكل ملحوظ، وعقد مع دول أوربية علاقات تجارية، وكذلك مع الولايات المتحدة الأمريكية التى عقد معها معاهدة صداقة وتجارة، واستلزم ذلك إنشاء ميناء موجادور على أثر ازدياد ورواج التجارة، ثم استرد مزغان من البرتغاليين.

وأقام محمد كذلك علاقات وثيقة مع العثمانيين، وأدى ارتباطه مع شريف مكة الشريف سرور بالمصاهرة أن زاد الاتصال بين البلدين، وتمكن محمد بن عبد الله كذلك من استعادة طنجة من براثن الأوربيين حيث كان البرتغاليون قد استولوا عليها مرة ثانية بعد استقلالهم عن الأسبان.

وعندما أراد ملك البرتغال أن يتزوج من ابنة شارل الثانى ملك انجلترا وهبه طنجة كجزء من المهر لابنته، ولكن المراكشيون تمكنوا فى سنة

١٦٨٤م من ضرب الحصار عليها، وتشديد قبضتهم حتى اضطر الإنجليز إلى الإنسحاب منها.

ولكن الخطأ الكبير الذى وقع فيه محمد بن عبد الله هو منحه امتيازات أجنبية فى المعاهدات التى أبرمها مع فرنسا كانت وبالاً بعد ذلك حيث ساعدت على تدخل الأجانب فى شؤون ماكش، واحتلالها من قبلهم فيما بعد[٩].

وانتهى عهد محمد بن عبد الله فى سنة ١٧٩٤م فى وقت تغيرت فيه الأحداث الدولية، وأصبح إيقاعها سريعاً بعد الثورة الفرنسية والصراع الدولى فى القارة الأوربية، الأمر الذى جعل المولى سليمان يتخذ سلسلة من التصرفات الغريبة ليتحاشى الاصطدام بالدول الأوربية، وباع سفنه لتونس، والجزائر وحرم على رعاياه التجارة فى البلاد النصرانية.

كما حدد للقنصليات الأجنبية مدينة طنجة كمقر لها، وامتنع عن المشاركة بدور واضح فى السياسة الدولية ففرض بذلك العزلة على بلاده، وفى الوقت الذى كانت فيه الدول الأوربية تطمع فى السيطرة على بلاد المغرب كلها : المغرب الكبير.

وقد تولى بعد سليمان المولى عبد الرحمن سنة ١٨٢٤م، وحاول جاهداً أن يعيد حركة الجهاد البحرى إلا أنه فشل فى ذلك فقد وصل الاستعمار الفرنسى إلى جارته الجزائر، وقبضت على زمام الأمو فى هذا القطر المغربى الشقيق[١٠] ومع ذلك فلم يفعل سلاطين مراكش العلويين مثل غيرهم حيث إنهم قد أحجموا عن مد يد العون للأوربيين، وظلت أيديهم بيضاء عن هذه الدنية.

إلا أنهم ترددوا فى مساعدة الجزائريين خشية من فرنسا وتهديداتها العسكرية فاضطر عبد الرحمن للتراجع عن المساعدة لإخوانه، وعن مقاومة القوى الأوربية المتصارعة.

إلا أن عبد الرحمن لم يستطع وقف وكبح مشاعر القبائل على الحدود مع الجزائر التى كانت تؤيد حكة المقاومة التى تزعمها الأمير عبد القادر فى الجزائر، ولذلك كانت فرنسا تحتج المرة تلو الأخرى واضطر كذلك عبد الرحمن إلى الخروج عن سياسته التقليدية فى عدم الاحتكاك عندما عمد القائد الفرنسى بيجو إلى الانتقال للحدود مع مراكش واحتل مدينة وجدة، فى الوقت الذى كان يحاول فيه بيجو إغراء دولته باحتلال مراكش أو جزء منها.

على أثر ذلك اتحدت جيوش المولى عبد الرحمن مع جيوش الأمير عبد القاد الجزائرى تؤازرهم قوات من القبائل الشرقية حتى بلغ الجميع ستين ألفاً إلا أنهم هزموا أمام القوات الفرنسية المنظمة، والمسلحة تسليحاً حديثاً.

ورغم تقدم القوات الفرنسية فى داخل البلاد المراكشية إلا أنها اضطرت للانسحاب منها خشية من المواجهة مع بريطانيا التى لم تكن لترضى عن سيطرة فرنسا على موقع مراكش وتوابعه الاستراتيجى، واضطرت مراكش لقبول معاهدة مع فرنسا سنة ١٨٤٤م مستسلمة لمطالبها، ورسمت الحدود بين الجزائر ومراكش مع ما فيها من مشاكل قسمت القبيلة الواحدة إلى شطرين، كما بدأت فرنسا تمد تحركاتها فى الصحراء الكبرى التى اعتبرتها الاتفاقية أرضاً مشاعاً مستغلة ظروف أن فرنسا هى الأقوى.

ولم يكن يثنيها عن احتلال مراكش سوى التهديدات البريطانية لفرنسا(١١).

وشهدت الفترة التالية (النصف الثانى من القرن التاسع عشر) تكالب الدول الأوربية الاستعمارية على فتح أبواب المغرب فى محاولة من كل منها لاحتلاله، ولذلك فقد عقد مؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠م اتخذ فيه المؤتمرون قراراً نص على المحافظة على استقلال المغرب، وتركه مفتوحاً للتجارة الحرة مع جميع الدول.

وظهر فى هذه الفترة أن تكالب دول عديدة ومحاولتها احتلال المغرب قد جاء فى صالحه، إذ أن كل دولة كبحت جماح الأخرى عن تحقيق هذا الهدف، ولكن تولى أمره نخبة من السلاطين لضعاف، وانتشار المشاكل التى أخذ يحتج بها الأوربيون وخاصة وجود وانتشار اللوصوصية الذى أوقع المغرب فى حرج أمام الدول الأوربية.

أضف إلى ذلك الترف واللهو والإسراف الذى عاش فيه المولى عبد العزيز (١٨٩٤ـ١٩٠٨)م، واضطراره إلى فرض الضرائب، ثم عدم جدواها فاضطر إلى الاقتراض من الدول الأوربية حيث شجعته فرنسا على ذلك لتوقعه فى الشرك نفسه الذى وقعت فيه مصر وتونس (قبل ذلك) ليكون ذلك طريقاً وذريعة لاحتلال البلاد.

وكان مجال القروض التى عقدت فى سنة ١٩٠٣، ١٩٠٥، ١٩٠٦م هو الوسيلة التى حاولت بها فرنسا للاستيلاء على المغرب بنشاط سرى دون أن تثير حفيظة غيرها من الدول، ولكن تغير الظروف الدولية قد أطاح بمعاهدة مدريد التى أشرنا إليها، فقد سعت فرنسا إلى اتفاقية مبادلة مع انجلترا على أساسها يتم إطلاق يد فرنسا فى مراكش فى مقابل إطلاق يد انجلترا فى مصر.

وظلت هناك معضلة كحجر عثرة أمام فرنسا بعد تخطيها معارضة انجلترا وكانت المعضلة هى ألمانيا التى باتت تراقب الموقف عن كثب لمصالحها العديدة فى المغرب.

وفاجأ الإمبراطور الألمانى البلاد المعنية بزيارته إلى طنجة بالمغرب سنة ١٩٠٥م وإعلانه وجوب الحفاظ على استقلال المغرب، والحفاظ عليه مفتوحاً أمام التجارة الحرة لجميع الدول، وكان يهدف من إعلانه إحراج موقف فرنسا التى تعد العدة لالتهام مراكش ليس هذا فحسب بل مضى

الإمبراطور الألمانى فى سياسته فأقنع روزفلت الرئيس الأمريكى بعقد مؤتمر دولى لضمان استقلال المغرب الأمر الذى عارضته فرنسا.

ورغم أنف فرنسا انعقد المؤتمر على السواحل الأسبانية سنة١٩٠٦م حضرته ١٢ دولة من بينها المغرب، وتمخض عن قرارات تضمنت المحافظة على استقلال المغرب وسيادته على أراضيه(١٢).

ومع ذلك فقد تذرعت فرنسا ببعض الحوادث الفردية والجماعية وحماية الأوربيين، وانطلقت تستولى على بعض البلاد المغربية، كما أن إغراق المغرب فى الديون قد شجع فرنسا على احتلال عاصمة البلاد (فاس)، وفى المقابل تنازلت فرنسا لألمانيا عن مساحات شاسعة فى السودان الفرنسى نظير إطلاق يد فرنسا فى المغرب.

وفى ٣٠ من مارس سنة ١٩١٢ تمكنت فرنسا من اقناع السلطان عبد الحفيظ (الذى كان حاكماً حينئذ على المغرب) بإبرام معاهدة حماية وتظاهر الطرفان بأن ذلك لمصلحة البلاد، وأنها لقيت ترحيباً من أهل فاس. وكانت هذه مغالطة كبيرة ذ أن أهلها قد عدوا ذلك خيانة للدين والوطن وانتهى أمر المغرب بأن منحت أسبانيا نسبة ٠,٠٥ من أرضه، بينما تركت طنجة ميناء يخضع لإدارة دولية(١٣).

السياسة الفرنسية ومقاومة المغربيين لها:

عمدت فرنسا إلى وسيلة الفرقة بين الأهالى عندما أصدرت مرسوم : «الظهير البربرى» ويهدف المرسوم إلى تأصيل التقاليد البربرية وجعلها بديلاً للشريعة الإسلامية الأمر الذى لمس الوتر الحساس عند المسلمين فاشتعلت المقاومة ولم تتوقف حتى عجزت فرنسا عن السيطرة على البلاد طوال عشرين عاماً.

كما عمدت فرنسا إلى إعادة ما صنعته فى الجزائر بنقل مواطنين فرنسيين إلى المغرب، وسهلت لهم السيطرة على الأراضى الزراعية، وعلى

الموارد المعدنية والمؤسسات الاقتصادية الهامة، كما عينتهم فى كبرى الوظائف فى حين لم تترك للمغاربة سوى الوظائف الصغيرة، وبلغ ما تملَّكه الفرنسيون من الأراضى حوالى ٣٠٪ اختيرت من أجودها وأخصبها.

ولذلك فقد انفجرت المقاومة المغربية ببسالة فى وجه المحتل الفرنسى حيث ظهر لها قادة كان أعظمهم على الإطلاق هو :

الأمير عبد الكريم الخطابى :

هو أحد أفراد أسرة كبيرة كانت تسيطر على منطقة الريف التى كانت تحت حكم إسبانيا، وكان هو وأخوه محمد خبيران بالشؤون السياسية حيث إنهما نالا قسطاً كبيراً من الثقافة الغربية بالإضافة إلى الثقافة الوطنية، وقبل ثورته تعلم الأسبانية والفرنسية، وكان يعلم الموظفين الأسبان اللغة البربرية، وقد سجن سنة ١٩٢١ لخلاف بينه وبين ضابط أسبانى، ولكنه فر من السجن.

وبدأ ينظم مجموعة من الرجال وجمع الناس حوله فى ثورة مسلحة، وأراد تحرير منطقة الريف من السيطرة الأسبانية، حيث التقى بهم فى معارك عديدة هزمهم فى الكثير منها.

ففى سنة ١٩٢١ قضى على جيش أسبانى بأكمله بلغ عدده عشرين ألفا بالقرب من مدينة مليلة، حتى تسبب ذلك فى وقع انقلاب بأسبانيا، واستطاع فى سنة ١٩٢٤م إجلاء الأسبان عن بعض مناطق من الريف واسعة وبدأ ينطلق للمناطق التى تحتلها فرنسا.

إلا أن الخلاف بين رجاله مكن الفرنسيين منه فهزموه، واستسلم سنة ١٩٢٦م وتم نفيه إلى إحدى جزر المحيط الهندى حيث ظل بها حتى سنة ١٩٤٧م عندما لجأ إلى مصر من منطقة السويس أثناء مروره بها إلى فرنسا وبالطبع مثله مثل غيره من المجاهدين والمناضلين لقى كل تكريم وترحيب

يليق بأمثاله فى مصر حيث ظل يواصل جهاده إلى أن حصل المغرب على استقلاله، ووافته المنية بالقاهرة فى سنة ١٩٦٣م.

وقد فجر عبد الكريم بجهاده عملياً وسياسياً وعسكرياً طاقات الشباب المغربى الذى أخذ يطالب بالحرية فى مجلة المغرب التى انشاؤها والتجمعات السياسية التى قادها علال الفاسى، وأحمد بلفريج حتى شكل المغربيون حرب الاستقلال فى سنة ١٩٤٤م.

وبدأ يقيم المؤتمرات ويدعو إلى استقلال البلاد، وتكونت جبهة واحدة موحدة من الأحزاب كلها سنة ١٩٥١م ظلت تناضل حتى نال المغرب (مراكش) استقلاله من فرنسا سنة ١٩٥٦م بعد قيام حكومة ملكية دستورية فى سنة ١٩٥٥ وبذلك أعيد السلطان محمد بن يوسف للحكم، كما نال المغرب استقلاله من أسبانيا وتحقق استقلال البلاد كلها من أكتوبر سنة ١٩٥٦م، كما أعيدت طنجة إلى سيطرة المغرب عليها بعد أن كانت منطقة دولية وانضم المغرب للأمم المتحدة، وجامعة الدول العربية فى العام نفسه.

وفى سنة ١٩٦١م تحقق جلاء القوات الفرنسية عن جميع قواعدها فى المغرب، وكذلك تم تصفية القواعد الأمريكية فى العام التالى.

وتجدر الإشارة إلى أن السلطان محمد بن يوسف قد وافته المنية فى ٢٦ من فبراير سنة ١٩٦١م، وخلفه على العرش ابنه الملك الحسن الثانى[١٤].

الهوامش

(١) د / محمد عبد الغني سعودي ـ ص ٥٣١ وما بعدها .

انظر : د / زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٥٢٧ وما بعدها .

(٢) محمود شيت خطاب ـ المغرب العربى ـ ص ١٧٧ وما بعدها .

(٣) Ricard Robert Etude sur L'Histoire des Portuguais au maroc, Paris, 1955. p. 144 .

(٤) Dacuments indits sur L'histoire de L'occupation Espagnol en Afrique 1506 . 1584 .

(٥)محمود شيت خطاب ـ المغرب العربى ـ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤

وانظر : Richard Robert . op . cit . p. 368 .

(٦) د / زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥ .

وانظر : د / صلاح العقاد ـ المغرب العربي ـ ص ٥٣ .

(٧) د / جلال يحي ـ المغرب الكبير ـ جـ ٣ ـ ص ٣٩ .

(٨) د / جلال يحي ـ المغرب الكبير ـ جـ ٣ ـ ص ٤٣ وما بعدها .

وانظر التفاصيل في كتاب : د / صلاح العقاد ـ المغرب العربي ـ ص ٥٥ و، بعدها .

(٩) د / صلاح العقاد ـ المغرب العربي ـ ص ٩٥ وما بعدها .

(١٠) د / صلاح العقاد ـ المغرب العربي ـ ص ٦٤ وما بعدها .

وانظر : د / زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٥٣٦ وما بعدها .

(١١) د / جلال يحي ـ المغرب الكبير ـ جـ ٣ ـ ص ٧٦ ، ٧٧ .

(١٢) د / صلاح العقاد ـ المغرب العربي ـ ص ٢٠٥ وما بعدها .

(١٣) روم لاندو ـ تاريخ المغرب في القرن العشرين ـ ترجمة ـ نقولا زيادة ـ بيروت ـ ١٩٦٣ ـ ص ٥٢٠ وما بعدها .

(١٤) د / جلال يحي ـ المغرب الكبير ـ جـ ٣ ـ ص ٦٦٦ وما بعدها .

وانظر : روم لاندو ـ تاريخ المغرب في القرن العشرين ـ ص ١١١

(١٥) روم لاندو ـ تاريخ المغرب في القرن العشرين ـ ص ١٩١ وما بعدها .

وانظر : محمود شيت خطاب ـ المغرب العربي ـ ص ٢١٥ .

الفصل الثامن
السودان

تمهيد

قامت فى السودان مجموعة من الممالك المختلفة على مر القرون الماضية وأكثر هذه الممالك استمرارية مملكة البجة (بادية كوش) الذين هم أهل ذمة وضيافة، كانوا يعبدون الأصنام حتى اختلط بهم العرب بعد فتح مصر وكان عليهم ملك (على بابا) الذى دفع الخراج لجعفر المتوكل على الله.

وانقسم البجة إلى قبائل عديدة هى : العبابدة، والبشاربين، والهدندوة والأمرار، والحلنقة (بنى عامر)، ومن مدنهم سواكن، عيذاب ـ وكان بأرضهم ذهباً، ولا سيما بمنطقة وادى العلاقى حيث كان ملكهم على بابا يحصل على عوائد استخراج الذهب من أرضه، ويبدو أن مناجم الذهب هذه كانت من بين أسباب هجرة العرب إلى السودان(١)، ولذلك تعتبر السودان بلداً عربياً إسلامياً منذ صدر الإسلام.

وفى العصر المملوكى كان حرص المماليك على التواجد فى السودان يرجع إلى سببين أولهما : تأمين تجارة البحر الأحمر، وثانيها : الحصول على الذهب من مناجم العلاقى(٢). وقبيل وصول العثمانيين إلى منطقة الشرق العربى ظهرت مملكة الفنج فى السودان سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م، ومد مؤسسها السلطان دنقس نفوذه على زعامات شمال السودان حتى الشلال الثالث، وامتد كذلك هذا النفوذ حتى شرق السودان.

وبعد أن استولى العثمانيون على أغلب البلاد العربية، أخذوا فى مواجهة البرتغاليين فى المياه المطلة عليها، وفى الهند حدثت المواجهة بينهما فى معارك عديدة كان من بينها معركة قاد فيها سنان باشا السفن العثمانية التى ألحقت هزيمة منكرة بالبرتغاليين الذى كان يقود أسطولهم فيها دون جوان كاستروا فى المياه الواقعة بين مصوع وسواكن، ومن يومها أصبحت سواحل السودان عثمانية وألحقت بإيالة الحبش التى شملت مصوع، وسواكن وملحقاتها، وصارت تابعة لصجقية جدة.

إلا أن العثمانيين قد تركوا السلطة الإدارية فى سواحل السودان للوطنيين، بينما تركزت مهام المحافظ العثمانى فى تحصيل السوم الجمركية، وبعض أشكال السيادة الأخرى، وبذلك تقاسم العثمانيون والفنج جباية الأموال من هذه السواحل.

أما الدواخل السودانية فقد ظلت بعيدة عن السلطة العثمانية، يحكمها الفنج، وتقاسموا الأدوار حيث كان على الفنج تجميع السلع والمنتجات وإرسالها عبر الطريق من سنار إلى كسلا، ثم سواكن لتصل لى الساحل فى حمايتهم، بينما يقوم العثمانيون بتسويقها وشحنها والمبادلة بها مع التجار الهنود وغيرهم من مرتادى السواحل السودانية، كما أشرف العثمانيون كذلك على عملية ترحيل الحجاج الذين يتجمعون من الحبشة والسودان فى سواكن ثم ينطلقون إلى الموانى الحجازية(٣).

ومن الملاحظ أن التجارة السودانية مع العالم الخارجى قد لاقت رواجاً طوال القرن السادس عشر، بينما تدهورت خلال القرن السابع عشر الميلادى، واقتصرت فيها التجارة (تقريباً) على تجارة الرقيق، ويبدو أن هذه كانت السمة العامة بالنسبة لموانى البحر الأحمر (العربية)، كما أن هذا التدهور التجارى قد استمر لى أوائل القرن التاسع عشر، وأصبح النشاط فى السواحل السودانية قاصراً على تجارة الرقيق، ومرور قوافل الحجاج(٤).

وقد استمرت دولة الفنج متخذة من عاصمتها (سنار) تبسط سلطانها على الكثير من بلدان السودان حتى السواحل إلى أن ضعفت شوكتهم، وأخذ نفوذهم فى التلاشى ابتداء من سنة ١٢٠٣هـ / ١٧٨٩م إذ ظهرت مجموعات من قبيلة الهمج، سيطرت على الوضع الداخلى لدولة الفنج. وجاءت نهاية هذه الدولة على يد إسماعيل بن محمد على الذى تمكن عام

١٨٢١م من الاستيلاء على عاصمتهم (سنار) حيث اضطروا للترحيب به، وتسليمه مقاليد الأمور فى دولتهم التى استمرت أكثر من ثلاثة قرون[٥].

استيلاء محمد على باشا على السودان

بدأت علاقة محمد على وأبنائه بالسودان منذ عام ١٨٢٠م، بعد أن تمكن إبراهيم باشا من تحطيم الدرعية سنة ١٨١٨م، واستيلائه على أغلب شبه الجزيرة العربية، حينئذ كافأه السلطان العثمانى محمود الثانى بتعيينه على باشوية جدة فى يوليو سنة ١٨٢٠م، وكانت تشمل سواحل السودان، وسواحل الحبشة، وأطلق على إبراهيم باشا لذلك متصرف جدة والحبش أو (والى إيالة الحبش ومتصرف أو ضجق جدة)[٦].

ويغلب على الاعتقاد أن محمد على قد اتجه لى غزو السودان تدفعه مجموعة من الأطماع أراد تحقيقها بالإضافة إلى عوامل أخرى دفعته دفعاً لذلك نستطيع أن نجملها فيما يلى :-

١ - القضاء على المماليك الذين تركز بعضهم فى دنقلة بعد فرارهم من مذابح محمد على لهم.

٢ - الاستيلاء على مناجم الذهب التى أشيع عن وجودها فى سنار للصرف منها على أطماعه التى لا تنتهى.

٣ - توسيع نطاق التجارة، والحصول على منتجات السودان التى كان يحتاجها من عاج ورقيق وغيره.

٤ - اكتشاف منابع النيل لنفع الزراعة والعلم فى مصر (لتأمين مصادر المياه).

٥ - وهو الأهم توسيع رقعة إمبراطوريته التى أراد لها أن تكون على أوسع وأقوى نطاق.

٦ ـ وربما أيضاً تفكيره فى التجنيد من أهالى السودان، وبعد مذبحته للمماليك، وعدم ثقته فى المرتزقة الذين كان يعتمد عليهم ويكلفونه نفقات باهظة فى الوقت الذى لم يكن فيه محمد على يستطيع أن يفرط فى دور المصريين الزراعى ولم يشأ أن يبعدهم عن مجالهم الذى انحصروا فيه منذ الغزو العثمانى لمصر.

٧ ـ تأمين حدود مصر الجنوبية[٧].

وعلى كل فقد ظل محمد على يستعد طوال السنوات السابقة على سنة ١٨٢١ لغزو السودان من جمع للمعلومات، وإرسال الوفود والجواسيس للتعرف على هذا البلد الشاسع الكبير فقد عرف بعض الأخبار التى قصها عليه بوركهات وملاحظاته ومشاهداته فى السودان، كما توجد إشارة لبعض الجواسيس ذكرها كاتب الشونةفى مخطوطه، ويذكر فيه أنه قد وصل إلى مملكة سنار سنة ١٨١٣ أول جاسس من رجال محمد على. وأرسل كذلك وفداً عام ١٨١٢ فى مهمة سياسية لتحريض آخر ملوك دولة الفنج (بادى السادس) على المماليك الفارين إلى مملكته، ولكنها كانت مهمة أخرى لجمع المعلومات عن السودان وإمكانياته وخبراته، ولاسيما موضوع الذهب الذى أشيع عنه كثيراً [٨].

وقد تحرك جيش محمد على فى يوليو سنة ١٨٢٠م، واشتمل على حملتين **الأولى** : على رأسها إسماعيل بن محمد على، وبلغ عدد رجالها أربعة آلاف مقاتل كان أغلبهم من العرب والمغاربة والألبانيين والأتراك، ومعهم أربع وعشرون مدفعاً وحوالى ألف وخمسمائة فارس وكان معهم بعض الأجانب الأوبيين.

أما الحملة الثانية : فكان على رأسها محمد بك الدفتر دار (صهر

محمد على) وتألفت من ثلاثة آلاف مقاتل تساندهم عشر مدافع لفتح كردفان.

وقد وصلت الحملة إلى وادى حلفا بصعوبة شديدة، ثم انطلقت إلى دنقلة التى فرّ منها المماليك إلى سواكن، وبعضهم إلى دار فور، وغيرها.[9].

وواصل جيش محمد على زحفة حتى استولى على بربر فى ٥ مارس عام ١٨٢١م، ثم استولى على شندى، وحلفاية، وأم درمان، وفى ١٤ يونيو عام ١٨٢١م تمكن إسماعيل من احتلال سنار عاصمة مملكة الفنج، كما وصلت قواته إلى فازوغلى، ووادى مدنى... الخ، حتى سيطرت جيوش محمد على على أغلب بقاع السودان.

وثمة قضية أود الإشارة إليها وهى : أنه حدثت تجاوزات عديدة صاحبتها أعمال سلب ونهب وقتل وتدمير وتشريد للآلاف، وغرامات لم أشأ أن أتعرض لتفاصيلها وآثرت أنه أضرب الصفح عنها، ولكن الذى أود التأكيد عليه بكل أساليب التأكيد هو أن ما حدث لا تتحمل تبعاته مصر، ولا المصريين، فهؤلاء القادة الذين قادوا الجيوش بأوامرهم البشعة كانوا جميعاً (بدون استثناء) غرباء عن مصر ابتداءاً من محمد على نفسه إلى أصغر جندى فى جيشه قد عانى منهم المصريين قبل أن يعانى منهم إخواننا فى شبه الجزيرة العربية[10]، وفى السودان، وأستطيع أن أوكد على أنه لم يكن ضمن هؤلاء جندى واحد مصرى قد شارك فى هذه الأحداث البشعة التى آثرتُ الإشارة إليها عرضاً فقط.

هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت هذه هى طبيعة الحروب فى القديم والحديث وغالباً يحدث فيها كل ألوان القتل والتشريد، والسلب والنهب وقانا الله شرورها.

النظام الإدارى فى السودان (عهد محمد على):

اعتمد النظام الإدارى فى السودان على مجموعة من القيادات كان على رأسهم :-

١ - **الحكمدار** : الذى يشكل (الحاكم العام) وله جميع السلطات المدنية والعسكرية الكاملة، ولكنه يتبع ديوان الداخلية بمصر، وجعلت الخرطوم عاصمة ومقراً للحاكم العام (الحكمدار).

٢ - **المديرون** : حيث تم تقسيم السودان إلى مجموعة من المديريات بلغت سبعاً هى (دنقلة - بربر - الخرطوم - كردفان - سنار - فازوغلى - التاكة) وعلى رأس كل واحدة منها مدير يساعده وكيل ومجموعة من المعاونيين، وكتبه، وقاضى، ومفتى ومجلس من الوطنيين للمشورة، على طريقة (أهل مكة أدرى بشعابها).

كما قسمت المديريات إلى أقسام يدير كل منها ناظر، وفى كل مديرية حامية، بينما كان يدير المدن الساحلية مثل مصوع وسواكن محافظ(١١).

كما أنشئ فى كل مدينة رئيسية مجلس محلى للنظر فى المسائل الإدارية، بينما كان هناك مجلس للحاكم يقبع فى العاصمة الخرطوم، ويخضع للمجلس المخصوص (مجلس الوزراء) فى مصر، أما عن النظام المالى فقد كان يعتمد قبل الحكم المصرى على نظام المقايضة (المبادلة)، وبعد ذلك ظهر الدولار النمساوى وظهرت عملات فضية وأخرى ذهبية، وازدادات ألوان التجارة المختلفة خارجية وداخلية وحينئذ انتشرت العملات المصرية خاصة فى المدن الكبرى(١٢).

وتجدر الإشارة إلى السودان كان يحقق فى الغالب عجزاً فى الميزانية

إذ أن المصروفات كانت تزيد عن الإيرادات.

ومما يجدر ذكره أيضاً هو أن السودان إدارياً كان يتبع عدة دواوين بمصر، فهو من الناحية المالية كان يتبع ديوان المالية، ومن الناحية العسكرية كان تابعاً لديوان الجهادية وبقية الأمور الداخلية الأخرى، كان يشرف عليها ديوان الداخلية في مصر.

وقد أثبت هذا النظام فشله لأن السودان ظل ممزقاً فى معاملاته بين جهات متعددة تشعبت وتناحرت فيما بينها فتأخرت لذلك المصالح، فاضطرت الحكومة أمام هذه المشاكل إلى توحيد كل مصالح السودان وإدارتها وتوجيهها إلى ديوان الجهادية [١٣].

تجنيد السودانيين

ظل محمد على محافظاً على المصريين لاستغلالهم فى زراعة الأرض المصرية الخصبة وامداده باحتياجاته الزراعية والمواد الخام اللازمة للعمليات الحربية وبناء الدولة ولذلك فقد كان من بين عوامل غزوه للسودان - على ما يبدو - تجنيد السودانيين كما قدمنا.

والدليل على ذلك أنه ما إن استقرت السلطة المصرية فى السودان حتى سارع محمد على بإرسال أوامره، وإلحاحه على قواده هناك بجمع أكبر عدد ممكن من الرجال الذين يصلحون للأعمال العسكرية والتدريبات المختلفة لتجنيدهم ضمن جيشه [١٤].

وتجدر الإشارة إلى أن مصادر هؤلاء الرجال كان يتم جمعه من قبل السلطات المصرية عن طريق الإغارة على البلاد السودانية وجمع عدة آلاف ترسل على وجه السرعة إلى مصر، فى الوقت الذى منعت فيه إدارة

محمد على بالسودان الجلابة من جمع الرقيق وبيعهم فى الأسواق، وأصبحت هذه المهمة حكراً على السلطات المصرية.

وقد صاحب عملية جمع الرقيق من السودان ازدياد المطالبات الدولية الإنسانية بإلغاء الرق، وعندما بدأت تظهر بعض الاعتراضات الانجليزية الموجهة لمحمد على لما يحدث فى السودان كان جاهزاً فى رده : بأنه قد أصدر أوامره لقواده بمنع تجار الرقيق، إلا أن حركات العصيان التى حدثت من بعض القبائل الزنجية كانت تستلزم زحف القوات لفرض النظام، وضم من يصلح للجندية إلى الجيوش النظامية حتى لا يُعامل من انضم إليها معاملة الرقيق بل يتزوج ويرتقى فى الرتب على حسب إمكاناته(١٥).

ولذلك فقد كانت حاجة محمد على لعنصر آخر لتجنيده ملحاً لأنه لم يعد يطمئن إلى أخلاط جيشه فاقد الانتماء لمصر، الأخلاط الغريبة التى كان كل همها السلب والنهب، والحصول على الغنائم.

اهتبل محمد على فرصة زيارة أحد القادة الأوربيين (الكولونيل سيف) الذى اعتزل الخدمة العسكرية برتبة (كابتن) وزار مصر ١٨١٩م حيث اعتنق الإسلام ونودى باسم سليمان باشا ـ فيما بعد ـ وأدى إعجابه بمحمد على إلى الانخراط فى العسكرية المصرية حيث أسند إليه مهمة إعداد جيشه الجديد من السودانيين فقد اتخذ من مدينة أسوان معقلاً ومعسكراً لتجميع الرقيق وتدريبه على يد سليمان باشا حيث توالت أعدادهم الكبيرة فى الوصول إلى هناك.

وعندما توسعت امبراطورية محمد على، واحتاج الأمر إلى أعداد كبيرة من الجنود خاصة فى الحجاز ونجد واليمن التى كان يفقد فيها الكثير من رجاله بسبب الأوبئة ومقاومة القبائل، وثورات العسيريين، وغيرهم،

حينئذ لزم الأمر تجنيد آلايات كاملة من السودانيين.

ولذلك فقد تغير مكان تجميع السودانيين، وأصبحت سواكن في شرق السودان بدلاً من أسوان نظراً لقرب سواكن من الموانئ الحجازية، وملائمتها لرسو السفن، حيث تدفع بالأعداد الكبيرة من جميع أنحاء السودان لتتجمع بسواكن وتحصل على بعض التدريبات السريعة، ولذلك تحصل على بعض الراحة كالتقاط للأنفاس، وتستكمل معداتها ومؤنها، ثم يستقل الجميع القوارب في اتجاه موانئ الحجاز[١٦].

وفي سنة ١٨٣٥ تم تجميع آلاى كامل أطلق عليه الآلاى ٢٤ أشرف عليه حكمدار السودان بنفسه (خوشيد باشا)[١٧]، وكانت الأوامر تصدر إلى محافظ جدة بسرعة جلب السفن إلى سواكن لنقله على أن ترسل احتياجات الآلاى من ملابس وأسلحة من نظارة الجهادية بمصر ومع كل الاحتياطات التي حاول محمد على اتخاذها إلا أن تجربة تجنيد السودانيين قد أصابها الفشل الذريع، ويرجع ذلك إلى :

١ ـ موت أعداد كبيرة منهم حيث كانوا لا يتحملون المرض مهما كان تافهاً.

٢ ـ إقدام أعداد كبيرة منهم على الانتحار، ويبدو أن ذلك كان بسبب حالتهم النفسية المتدنية بسب أخذهم من بين أسرهم قصراً ومن حياتهم التي اعتادوها إلى حياة ربما اعتبروها أوامر ونواهي وكبت لابد من الالتزام به وتنفيذه.

والدليل على ذلك أن أعداداً منهم كانت تصاب باختلال عقلي، وهذا في نظري بسبب الحالة النفسية السيئة التي وصلوا إليها، أضف إلى ذلك أنه ربما كان في العجلة التي كان عليها الحالة العسكرية، واحتياج

الجيوش لأعداد كبيرة منهم قد دفعت القادة إلى تعجل تدريبهم، والضغط عليهم بما هو فوق طاقتهم مما كان يدفعهم إما للإنتحار أو للمرض[١٨].

وقد استخدم الجنود السودانيون فى أماكن عديدة كان من بينها اليمن، ومكة، وجدة، وتشير الوثاق إلى عملية التجنيد ونقل الجنود السودانيين قد استمرت حتى حوالى سنة ١٨٤٠م، ولذلك نشطت حركة ملاحية للقوارب والسفن الناقلة طوال الثلاثينات من القرن التاسع عشر الميلادى ومن أمثلة ذلك :ـ

عندما ظهر بعض التناقض فى أعداد الجنود وبحارة السفن الراسية فى ميناء جدة، اقترح أحمد باشا يكن سر عسكر الحجاز فى سنة ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م الإستعانة بمجموعة من السودانيين غير المدربين الذين سماهم فى رسالته (النفرات الأعجميين «الغشماء») لتكوين بلوكين منهم حتى يمكن استخدامهم فى تلك السفن، وأعمال الميناء المختلفة، وتداول هذا الأمر مجلس جدة حتى تمت الموافقة عليه، وبدأ التنفيذ فى نقل الجنود على وجه السرعة[١٩].

الجوانب الإيجابية للحكم فى السودان

أجد لزاماً علىّ الإشارة إلى بعض الجوانب الإيجابية. كما أشرت إلى الجوانب السلبية التى لم أشأ أن أتعرض لتفاصيلها حرصاً على المصلحة العامة من جهة، ومن جهة أخرى أنها أمور ليس لنا جميعاً فيها ناقة ولاجمل، وقد تمثلت الجوانب الإيجابية فى عدة نواحى من بينها :ـ

١ ـ **المجال الزراعى** : فقد بذلت جهود محمودة لدفع الأهالى إلى الإهتمام

بالجانب الزراعى، بإدخال زراعات عديدة، ومكافحة الآفات، وأرسلت بالفعل أعداداً من الفلاحين المصريين إلى سنار وكردفان لتدريب السودانيين على طرق الزراعة الحديثة عن طريق هؤلاء الفلاحين المهرة.

ونقلت بعض أنواع الزراعات الجديدة، والفاكهة من مصر إلى السودان، ومن بعض بلدان السودان إلى مثيلتها فيه كالعنب والليمون، والتين، كما تم تعميم زراعة النخيل من مكان إلى آخر (من دنقلة إلى الأقاليم الأخرى)، إضافة إلى إدخال زراعة الأرز والبطيخ، وبعض الخضروات والكتان والقطن[٢٠].. الخ.

مجال التعدين

كما عملت الإدارة المصرية على استخراج خام الحديد من كردفان منذ سنة ١٨٢٨م بطريقة حديثة بعد أن كان استخراجه يتم بطريقة بدائية وكميات قليلة، بالإضافة إلى تقليل نفقات استخراجه، وكانت هناك جهود أخرى خاصة معدنى الرصاص والكحل من جبل سواكن وبلغ المستخرج منه سنة ١٨٢٠ حوالى أربعة آلاف قنطار، بينما كان المستهدف عشرة آلاف قنطار[٢١].

وهناك محاولات أخرى فى مجال التجارة والمواصلات حيث نظمت عملية نقل البريد بين بربر وسواكن وغيرها، وإنشاء مجلس تجار فى الخرطوم وسيرت السفن لنقل البضائع السودانية بين موانى السودان وكل من الحجاز والسويس، والقصير، والسماح للسفن الهندية بالحضور إلى هذه الموانى وتسهيل عملية مرور القوافل البرية من الداخل إلى الساحل عن طريق تشجيع القبائل على حاميتها بإقامة المراكز الداخلية التى تساعد هذه القوافل على المرور بسلام، وتخفيض الضرائب، وغير ذلك، بالإضافة إلى

عدد من المدارس التى أنشئت فى عهد الخديوى إسماعيل.

وثمة كلمة أردت أن أثبتها بصدق للتاريخ، وهى أن الجهود المبذولة فى تعمير السودان، وأغلب الإيجابيات كانت مجهة نحو الجيوش الجرارة التى تنطلق إلى بلدان السودان والمناطق الأخرى، ولخدمة السلطات العسكرية والإدارية وطلبات الولاة فى مصر التى لاتكاد تنتهى من منتجات زراعية، ومعادن، ورقيق، وحيوانات للحمل والذبح، والزينة كذلك، ومع ذلك فقد استفاد السودانيون من بعض هذه الإيجابيات التى أوردتها لماما، وهذا الحديث كما انطبق على ما مضى فإنه ينطبق بلا شك على المجال التعليمى إذ أن المدارس التى افتتحت هناك فى السودان كانت لتخريج موظفين سودانيين لمعاونة السلطات الإدارية التابعة لولاة مصر، بالإضافة إلى أن أغلب المدرسين الذين عملوا فى هذه المدارس كانوا منفيين، وفى حالة نفسية سيئة ينطبق عليهم المثل "فاقد الشئ لا يعطيه" وأقرب مثل على ذلك كان رفاعة الطهطاوى رائد النهضة التعليمية المصرية (ابن الأزهر الشريف) فى العصر الحديث.

الثورة المهدية فى السودان

حفل التاريخ بثورات عديدة نتجت عن القهر والظلم، وأشكال الفساد المختلفة، وقدر لبعضها النجاح، وغنم البعض الآخر ذكراً حسناً حيث نال ما يستحق من التاريخ الحقيقى، إلا الثورة المهدية انفردت بأنها لم تجد هذا الذكر، ولم تحظ بالنجاح الذى حظيت الثورات والحركات الإصلاحية الأخرى به، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى تكالب الظلمة عليها، والمستعمرين حيث تكاتف الجميع ليس فى إخماد جذوتها فقط، وإنما فى تشويه صورتها أمام العالم ولا سيما المسلمين الذين ردد علماؤهم

ومؤرخوهم قبل عامتهم ما يقوله المستعمرون وقبلهم الظلمة من بنى عقيدتهم.

هذه الثورة (المهدية) التى تكالب عليها المستغلون المستعمرون الإنجليز، والترك والشراكسة، والإيطاليين، وزعماء وقادة مصر (الأجانب عنها) الذين أرغموا السودانيين بالسلاسل قبل المصريين بقيادة إنجليزية على وأد هذه الصحوة والحركة الإصلاحية الإسلامية.

هذه الثورة التى جمعت كل شعب السودان فى صف واحد ضد عدو واحد هو الأجنبى أياً كانت جنسيته إنجليزياً كان أم تركياً أم أوربياً تنصيرياً. وظلمها الكتاب والمؤرخون الأوربيون بما وصموها به من صفات مشينة هى وصاحبها براء منها، والمؤسف الأشد أسفاً ما نقله بعض العرب المسلمين عن قول المستعمرين فيها بسبب سيطرة الأجانب على مقدرات الأمور فى بلاد العرب فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، ناهيك عن هؤلاء الذين تربوا فكرياً وسفهاً فى أحضانهم (عن طريق البعثات والمدارس الأجنبية التى بلغ طلابها سنة ١٨٧٥م ١٨٩١٦ طالباً)، ثم عادوا يرددون كالبغاوات الضالة الشاردة آفكارهم وألفاظهم وسلوكياتهم، وكل منهم لا يعلم أنه يساهم بلبنة أو بسهم مسموم فى تدمير وطنه، أمته، تاريخه، وعقيدته، رموزه الوطنية والدينية أى فى تدمير نفسه، بيته، ولده.

وشهد القرن التاسع عشر عدوان الأوربيين المستعمرين على الجزائر، وتونس والهند والقوقاز، وأفغانستان، ومصر، والخليج، وإلى من . . الخ، فى الوقت الذى ضعفت فيه الدولة العثمانية، وأخذت البلدان الإسلامية تنسلخ منها الواحدة تلو الأخرى.

محمد احمد المهدى:

هو أحد الدعـاة المصلحين الذين ظهروا فى العصـر الحديث كنتيـجة حتمـية لما أصاب العالم الإسلامى من تفكك وضـعف، وسيطرة الأجانب المستعمرين المنصرين، وممن ساروا فى فلكهم.

وقد ولد محمد المهدى بجزيرة لبب ١٨٤٤م على بعد خمـسة عشر كيلو متر من دنقلة، والبعض يعود بـنسبة إلى الحسن السبط بن على (كرم الله وجهه)، اتجه منذ حداثة سنه نحو العلوم الدينية فدرسها فى الخرطوم، وبربر، وظهر عليـه الورع والزهد، وحب العلم والعلماء فأنشـأ فى مدينة الخرطوم مدرسة سنة ١٨٦٣م، ثم انتقل منقـطعاً للعبادة إلى جزيرة آبا فى النيل الأبيض، ومنها بـدأت دعوته للإصلاح وتنقيـة أمور الدين والعقـيدة الإسلاميـة مما لحقها من أباطيل وخزعبـلات، وعزا ذلك إلى الأجانب من كل الاتجاهات، ولذلك اشتملت دعوته وركزت على طرد هؤلاء وهؤلاء، وترك السودان للسودانيين.

هذه الدعوة التى لاقت استـجابة واسعة على مسـتوى السودان ككل فى سنوات قليلة سرعـان ما انتشرت، وتغلغلت فى النفوس فـقد وجدت قائداً يوجـهها نحـو العودة إلى الدين الصحـيح دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وطرد الأجانب أياً كانت انتماءاتهم فـهى دعوة دينية سياسية اقتصادية كذلك.

إذا أردنا تحديداً لأسباب نشوب الثورة المهدية فلنا أن نعلم أن السـودان لم يرزح فقط تحت نير العـثمانيين وقادة مصر إنما كان الأجـانب يتحكمون فى أموره بعد أن عين هؤلاء القادة حكام اجانب، وأصبحت أغلب الإدارة السودانية منهم فكان الحـاكم فى بحر الغزال هو الإنجليزى ليبـتون بك بعد استـقالة الإيطالـى جيسى، وكـان سلاتين النـمساوى وكـذلك اميليـانى،

والإيطالى ميسداليا فى دارفور، بينما حكم الدكتور شنتزر الألمانى مديرية خط منزجر شرق السودان، وحكم السودان ككل الحكمدار (غوردون) الإنجليزى.

هذا بالإضافة إلى القادة الأجانب للجيوش التى أرسلها حكام مصر مثل الجنرال لورنج الذى عمل كرئيس لأركان حرب جيش السودان وهو أحد القادة الأمريكان، وكذلك الضابط الأمريكى وليم داى الذى شارك فى حملة راتب باشا على الحبشة، وأرندروب الدانمركى الأصل الذى قاد الجيوش فى السودان كذلك(٢٢).

ويضاف إلى حكم الأجانب للسودانيين، كثرة الضرائب، ومنع تجارة الرقيق، وأحتقار بعض الموارد الاقتصادية، وتجميد السودانيين قصراً، وغير ذلك مما كان سبباً فى اشتعال الثورة وانتشارها فى كل أنحاء السودان.

والخلاصة أيضاً فى أسباب الثورة مع تسليمنا بكل الأسباب السابقة تكمن فى أن الشعوب لاتبحث عن أسباب أو عوامل تدفعها للثورة ضد المستغلين الغاصبين أياً كانت جنسياتهم وحجمهم فى استعمار البلاد، حتى ولو كان هذا الاستعمار فى صالح المحكومين وحتى لو كانت مصر فى السودان فإنها لاتخرج عن كونها باغية مستغلة له فما بالنا، وقد كان السودان محكوماً فى الحقيقة بخليط من الأمم المتعكرفة يتعالون على سكانه، وأصحاب أرضه، خليط من الموظفين المنفيين، والأجانب الإنجليز، والسويسريين، والألمان، والإيطاليين... الخ.

ويكفى أيضاً القول أن الثورة قد قامت فى وجه البغى والاستغلال فى كل صورة وغالباً تنتظر الشعوب من يقودها نحو انتزاع الحرية من مغتصبيها، قد انبرى محمد المهدى بقيادة شعبه فوفدت إليه الجموع من كل فج فى السودان يؤيدون دعوته ويناصرونه لطرد المغتصب المعتدى، ولولا

تدخل الإنجليز بكل القوة ومؤزارتهم للإدارة المصرية المنحرفة الفاشلة (الغريبة عن مصر) ضد السودانيين لكان للسودان الشقيق شأن آخر فى أمسه، ويومه، وغده.

وقد بدأت ثورة المهدى بإعلان دعوته فى أغسطس سنة ١٨٨١م، ومؤزارت عبد اللّه التاعيشى زعيم البقاره لها، فأخذ يرسل كتبه ومن يشيره إلى علماء الدين السودانيين، ومشايخ الطرق الصوفية الذين كان لهم زعامة روحية على أغلب السودانيين حينئذ، وعلى الفور أعلن البعض منهم، ولاءه، بينما آثر البعض الآخر الترقب لتطورات الموقف.

وعندما تواترت الأخبار عن دعوة المهدى لم يعبأ بها حكمدار السودان / محمد رؤوف باشا، حتى ازداد نشاط الدعوة، فأرسل الحكمدار فى طلبه، ولكن المهدى رفض فارسل له سفينة تحمل فصيلة من الجنود للقبض عليه، ولكن مصيرها كان الفناء.

وتطورت الأحداث سريعاً، تلك الأحداث التى صاحبت الثورة العرابية، وبداية الاحتلال البريطانى لمصر عندما تمكن المهدى من دخول مدينة الأبيض (عاصمة مديرية النيل الأبيض) فى منطقة كردفان سنة ١٨٨٢م والاستيلاء عليها.

وكان هذا الانتصار للمهدى مدوياً حيث استولى على أسلحة وعتاد عظهد من موقفه، وازدادت شعبيته فتناقل الناس أخبارهم بما أضافوه من ثبات أفكارهم من خوارق ظهرت على يديه فاستغلتها خصومة الأجانب ومن سار على نهجهم بتصويرة على أنه مخبول أو درويش أو أفاق، ووصموه بكل الصفات المشينة وعندما أرادت الحكومة المصرية استعادة الأبيض أرسلت جيشاً جراراً بلغ عشرة آلالاف جندى بقيادة إنجليزية هو

الضابط الإنجليزى هكس (الذى كان يخدم فى الهند) يعاونه أركان حَرب مكون من اثنى عشر أوربياً، وعلى مشارف الأبيض وفى ٥ من نوفمبر سنة ١٨٨٣ لقى هكس وجيشه هزيمة شنيعة أبيد فيها جيشه عن بكرة أبيه، ويذكر فى هذا الصدد أنه قد تم أكتشاف أن عدداً من الضباط والجنود المصريين ممن كانوا فى جيش هكس - وبعد مرور خمسة عشر عاماً - كانو يعملون فى صفوف جيش المهدية برغبتهم وأن المدفعية التى دافعت عن مدينة أم درهان (عاصمة المهديين) سنة ١٨٩٨م كانت مصرية بأسلحتها ورجالها[٢٣].

وفى السودان الشرقى الذى كان عاصمته سواكن، وبها الحامية العسكرية، بدأت بوادر الثورة فيها بعد أن شخص عثمان دقنة (أحد الأثرياء التجار المشهورين) على رأس مجموعة من وجوه القوم فى السودان الشرقى إلى الإمام المهدى لمبايعته حيث ولاه الأمير زعامة السودان الشرقى، وحمله بالكتب المجهة إلى المناطق وزعماء القبائل والانقياد لأوامره[٢٤].

فقد كان كما قال فيه اللورد كرومر[٢٥] (ايفلين بارنج) الممثل البريطانى فى مصر أن عثمان دقنة : "كان على جانب كبير من الكفاءة، كما كان الرجل الذى اختاره القدر ليلعب دواً رئيسياً فى شرق السودان.

ووقعت معارك عديدة بين قوات عثمان دقنة، والقوات الحكومية المرابطة فى السودان فى تكنات، وأركويت، وقباب وابنت، والتيب الأولى، والثانية وطماى . . . وغيرها كان النصر فيها فى الغالب للثوار الموالين للمهدى وعثمان دقنة[٢٦].

كما حدثت كارثة كبيرة لحملة كان على رأسها هكس فى نوفمبر

١٨٨٣م، حيث فقد معظم جنوده فيها، كما استسلم سلاتين باشا مدير فور، وكذلك ولبتون مدير بحر الغزال للمهدى، ولذلك فقد بدأت الحكومة الإنجليزية تسعى إلى إخلاء السودان، رغم معارضة بعض القادة، والحكومة المصرية، وفى ٤ من يناير سنة ١٨٨٤م جاءت أوامر اللورد جرانفيل - رئيس الوزراء البريطانى إلى اللورد كرومر بضرورة تنحى كل وزير أو مسئول فى مصر لايسير وفقاً لسياسة الإخلاء[٢٧].

وقد وجدوا ضالتهم فى نوبار باشا الذى تقلد الوزارة المصرية على شرط إخلاء السودان[٢٨].

ولم تكن سياسة الإخلاء بالأمر السهل بل كان صعباً وشيئاً مستحيلاً من لنقطاع الطرق بسيطرة ثوار المهدى عليها، واختارت بريطانيا غوردون لهذه المهمة حيث تم تعيينه حكمدار على كل السودان، وما أن وصل الخرطوم حتى تم حصارها، وانتهى إلى أن لقى فيها حتفه فى ٢٦ من يناير سنة ١٨٨٥م وتمكن الثوار من اقتحام العاصمة والسيطرة عليها[٢٩].

وأتفق مع الدكتور / جلال يحيى فى أنه قد كانت هناك صلات وثيقة بين ثوار وثورة الشمال (مصر العرابية)، وثوار وثورة الجنوب (السودان المهدى) فى وادى النيل، كما اتفق مع من قال بنوايا المهدى وسعيه فى القبض على غوردون باشا حكمدار السودان، وعدم قتله حتى يبادل به أحمد عرابى، وينقذه من محاكمة الانجليز له.

وعلى كل فقد ثوار المهدى غوردون، وأقامت انجلترا الدنيا ولم تقعدها تهيئة للرأى العام، وللثأر كمبرر لإرسال جنودها إلى الخرطوم، والاستيلاء على السودان فيكون ذلك من فعل يديها، حتى يطيب لها استعماره[٣٠].

استعادة السودان :

بعد أن تمكن المهدى من دخول الخرطوم اتخذها عاصمة لبلاده، وبدأ فى اجراءات الحماية التى تكفل له صد اعتداءات الانجليز والأتراك المتربصين به، ومع ذلك فلم تمهله المنية حيث لقى ربه فى سنة ١٨٨٥م مصوبا بالخلافة من بعده لرفيقه عبد الله التعايشى الذى كان قد أطلق عليه أبا بكر.

وقد صادف خليفته عبد الله مشاكل وأخطار عديدة بعضها داخلية والبعض الآخر خارجياً حيث دخل فى صراع عسكرى مع الحبشة تمكن فيه من هزيمة الأحباش عدة مرات استولى فى إحداها على عاصمتهم غاوندا كما قتل امبراطور الحبشة فى مارس سنة ١٨٨٩م على يدى قوات المهدية.

وجاءته الأخطار أيضاً من جانب الإيطاليين الذين استولوا على أجزاء كبيرة من شرق السودان حتى أنهم تمكنه من دخول كسلا فى سنة ١٨٩٤م، ولكن حالفته الاقدار إذ قام الأحباش بكسر شوكة الطليان والقضاء على قدر كبير من قواتهم فى معركة عدوة سنة ١٨٩٦م.

وفى العام نفسه تم تجهيز حملة إنجليزية باسم مصر بقيادة القائد العام السردار كتشنر الذى تمكن بعد معركة شرسة مع قوات المهدية حول أم درهان من دخولها وهريمة المهديين ليقضى بذلك على إحدى الدعوات الثورية الدينية التى كانت إحدى صور مقاومة الاستعمار فى العالم العربى الإسلامى.

وقد تمت استعادة السودان فى سنة ١٨٩٩م بمشاركة مصرية إنجليزية وقام على أثر ذلك الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى مع ما صاحبه من نزاع مستمر بين الإنجليز والحكومات المصرية كان فيه الإنجليز الأقوى نفوذاً وسلطة، واستمر الحال على هذا المنوال حتى قتل حاكم السودان سنة ١٩٢٤م حينئذ اضطر الجيش المصرى للإنسحاب من السودان، ولكنه عاد

مرة أخرى بموجب معاهدة سنة ١٩٣٦م.

وفى سنة ١٩٤٤م تألف أول مجلس استشارى حكم شمال السودان، وظهرت أول جمعية تشريعية سنة ١٩٤٨م كمقدمة لاستقلال السودان، وبعد استفتاء أقيم بين الشعب السودانى على الاستقلال أو الوحدة مع مصر تم بغده إعلان السودان جمهورية مستقلة فى يناير سنة ١٩٥٦م بعد موافقة مجلس الأمة المصرى، وبعدها انضم السودان إلى جامعة الدول العربية، وأصبح كذلك عضوا فى هيئة الأمم المتحدة، وتوج السودانيين هذه المكاسب بقيام حركة شعبية تمكنت من إقصاء العسكريين عن الحكم وإقامة حكومة مدنية برئاسة سر الختم خليفة أبتداء من أكتوبر سنة ١٩٦٤م(٣١).

الهوامش

(١) Crawford The Fung Kingdom of Sennar - Cloucester 1951 .p.120 - 121 .

وانظر : د / سعد بدير الحلوانى ــ الحكم المصري في سواكن وملحقاتها ــ (١٨٦٥ ــ ١٨٨٥)م ــ رسالة ماجستير ــ كلية اللغة العربية ــ القاهرة ــ ١٩٨٧ ــ ص ٣ ، ٤ .

(٢) Crawford , op .cit . p . 121 .

(٣) Crawford , op .cit . p . 122 .

وانظر : د. سعد الحلوانى ــ الحكم المصري في سواكن ــ ص ١١ وما بعدها .

(٤) صلاح الدين الشامي ـ الموانئ السودانية في مصر ـ ١٩٦١ ـ ص ١٢٥ وما بعدها .

(٥)محمد جمعان محمد داد الغامدي ــ ولاية الحبش في العصر العثماني ــ ١٨٠٥ ــ ١٩٠٣ ــ رسالة دكتوراه ــ كلية اللغة العربية ــ القاهرة ــ ١٩٩٥ ــ ص ٦٣ .

(٦) د ار الوثائق القومية بالقاهرة ــ وثيقة ١٦٨ ــ دفت ١٤ معية تركي ــ من إبراهيم باشا إلي مقام الصدارة ــ في ذي الحجة سنة ١٢٣٨هـ .

(٧) نعوم شقير ــ تاريخ السودان ــ دار الجيل ــ بيروت ــ ١٩٨١م ــ ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٨) كاتب الشونة ـ مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية ـ تحقيق الشاطر بصيلي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٦١م ـ ص ٧٢ .

وانظر : د / محمد جمعان الغامدي ـ ولاية الحبش ـ ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٩) دار الوثائق القومية ـ وثيقة رقم ١٩٩ ـ دفتر ٧ معية تركي ـ بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٣٦هـ .

وانظر : Woddington: Journal of Avisit to Some Parts of Ethiopin London 1882.p.230 .

(١٠) انظر تحليلًا لذلك في كتابنا : العلاقات بين مصر والحجاز ونجد ـ ص ٤٨ وما بعدها .

(١١) د / مكي شبيكة ـ السودان في قرن ص ٥٣ .

وانظر :

Hill. Richard Egypt in the Sudan.1820-1881.London.1959.p.23 .

(١٢) Hill. Egypt in Th Sudan . p . 34 .

(١٣) دار الوثائق القومية ـ وثيقة رقم ١٤٥ ـ دفتر ١٠ معية تركي ـ بتاريخ ٢٥ جمادي الأول سنة ١٢٣٧هـ .

وانظر : وثيقة ٣٢٥ ـ دفتر ١٠ ـ معية تركي ـ بتاريخ غرة ذي القعدة سنة ١٢٣٧هـ .

(١٤) الوثيقة رقم ٤٧ ـ محفظة ١١ جهادية ـ أمر إلي ناظر الجهادية ـ في ١٠ شعبان سنة ١٢٩٢هـ .

وانظر : د / محمد جمعان الغامدي ـ ولاية الحبش ـ ص ١٣٥ .

(١٥) د / شوقي الجمل ـ تاريخ سودان وادي النيل ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ جـ ٢ ـ القاهرة ـ ١٩٦٩م ـ ص ٤٠ .

(١٦) محمد جمعان الغامدي ـ ولاية الحبش ـ ص ٨٥ ، ٧٦ .

(١٧) د / سعد الحلواني ـ تجارة الحجاز ـ القاهرة ١٩٩٣ ـ ص ٦٣ .

وانظر : الوثيقة رقم ٢٦٨ ـ دفتر ٦٧ معية تركي ـ من الجناب العالي إلي محافظ جدة ـ بتاريخ ٨ شعبان سنة ١٢٥١هـ والأمر رقم ٢٩٣ ـ دفتر ٦٧ معية تركي ـ من الجناب العالي إلي عسكر الأقطار الحجازية ٨ شعبان سنة ١٢٥١هـ.

(١٨) الوثيقة ٥٩١ ـ ص ٧١ ـ دفتر ٥ يومية قيودات ورشة الجرنال بديوان المعاونة ـ غرة ذي الحجة إلي ١٧ صفر سنة ١٢٥٢هـ .

وانظر : الوثيقة ٢٧ ـ دفتر ١٥٦ مجلس ملكية ـ تقرير مجلس جدة عن محتفظ جدة إلي أمين بك وكيل ١٠٤ سر عسكر الحجار ـ كم ٢١ محرم سنة ١٢٥٣هـ إلي آخر الشهر .

https://alborDj.blogspot.com

(١٩) وثيقة رقم ١٦١ ـ دفتر ١٥٦ مجلس ملكية ـ صفحة ٢٥ ، مجلس جدة في جمادي الآخرة سنة ١٢٥٣هـ .

(٢٠) وثيقة ١٢١ ـ محفظة ١٩ بحربر ـ من أحمد ممتاز محافظ سواكن إلي مهردار الخديوي ـ في ٩ شعبان سنة ١٢٨٦هـ . ، وكذلك وثيقة رقم ١٢٢ بتاريخ ١٠ شعبان .

وانظر : وثيقة ٤٥٢ ـ ص ٥٨ ـ دفتر ١٠ عابدين ـ من رياض باشا إلي السكة الحديد بمصر ـ في ٢٢ شوال سنة ١٢٨٨هـ ، و : د / سعد الحلواني ـ الحكم المصري ـ ص ١٣٦ وما بعدها .

(٢١) Hill. Egypt in Th Sudan . p . 57 - 58 .

(٢٢) وثيقة (أمر) رقم ٣ ـ دفتر ٥ معية تركي ـ صادر إلي رستم أفندي ناظر المعادن ـ ١٨ محرم ١٢٣٥هـ . .

وانظر : الأمر (الوثيقة) رقم (٤) ـ المصدر نفسه .

(٢٣) د / شوقي الجمل ـ تاريخ سودان وادي النيل ـ جـ ٢ ـ ص ٣٠٦ وما بعدها.

وانظر : د / سعد الحلواني ـ الحكم المصري ـ ص ٧٤.

(٢٤) د / جلال يحي ـ العالم العربي الحدث ـ القاهرة ١٩٩٧م ـ ص ٢٣٥ .

(٢٥) انظر التفاصيل في :

محافظ مجلس الوزراء ـ محفظة ٩/١/ب ـ السودان ـ الثورة المهدية ـ من حكمدار عموم السودان في ٣ أغسطس ١٨٨٣ .

وانظر : د / شوقي الجمل ـ تاريخ سودان ـ جـ ٣ ـ ص ٣٣ وما بعدها .

و : إبراهيم فوزي (باشا) السودان بين يدي غوردون وكتشنر ـ جـ ١ ـ القاهرة ـ ١٣١٩هـ ص ١٧٦ وما بعدها .

(٢٦) اللورد كرومر ـ بريطانيا في السودان ـ ترجمة / عبد العزيز أحمد عرابي ـ الشركة العربية للطباعة والنشر ـ ط ١ ـ القاهرة ١٩٦١م ـ ص ٤٠ .

(٢٧) انظر تفاصيل المعارك في كتاب : اللورد كرومر ـ بريطانيا في السودان ـ ص ٤١ وما بعدها .

(٢٨) رئاسة مجلس الوزراء ـ السودان المطبعة الأميرية ـ القاهرة ١٩٥٣م ص ٢ .

(٢٩) عبد الرحمن الرافعي ـ مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ـ ط ١ ١٩٤٢م .

(٣٠) د / سعد الحلواني ـ الحكم المصري ـ ص ٢١٣.

(٣١) د / جلال يحي ـ العالم العربي ـ ص ٢٣٨ وما بعدها .

(٣٢) د / زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٤٠٤ وما بعدها .

https://alborj.blogspot.com